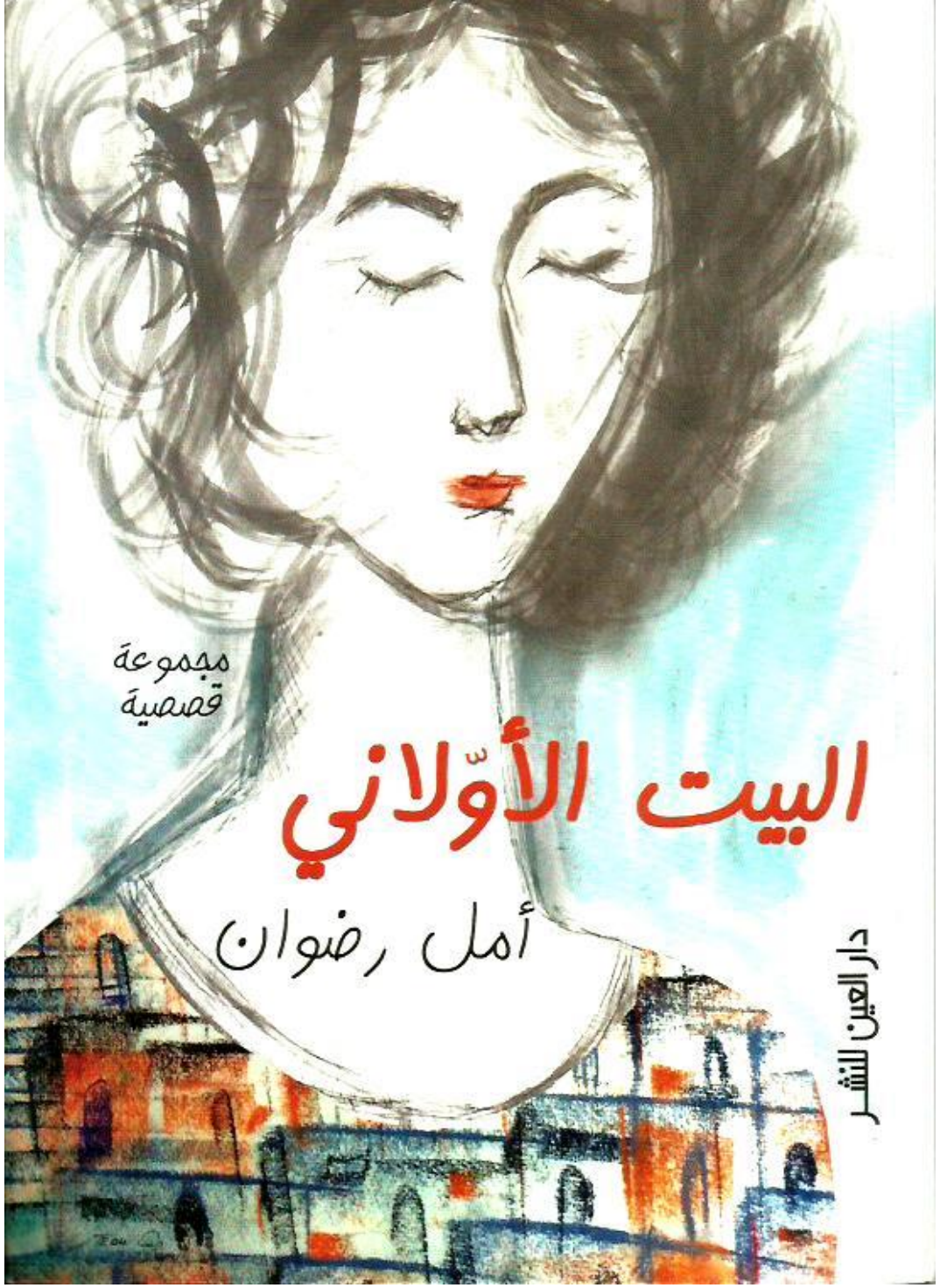

مجموعة قصصية

البيت الأوّلاني

أمل رضوان

دار العين للنشر

البيت الأوَّلاني

البيت الأوّلاني

قصص

أمل رضوان

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف: لوحة البيوت مهداة من طارق الطيب

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/١٤٨٦٨

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 289 - 5

البيت الأوَّلاني

قصص

أمل رضوان

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

رضوان، أمل.

البيت الأولانى: قصص/ أمل رضوان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ٢٨٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٤٨٦٨/ ٢٠١٤

"ربما كان هذا الحنين طريقتنا في البقاء"

محمود درويش

المحتويات

1. مسحوق الزهرة الزرقاء لا يمحو كل البقع	9
2. مربى لارنج	15
3. الحيّ أبقى	19
4. ترتيلة الكاف	27
5. كبدة ومخ	35
6. أحسنت يا عم الشيخ	41
7. السالوبيت	45
8. الليلة عيد	49
9. قص ولزق	55
10. البيت الأوّلاني	61
11. رابعة تاني	67
12. شوكة ومعلقة	71
13. طقم الفضية	77
14. عوّامة زكي	81

15. النمل الفارسي 87
16. السُّقّاطة 93
17. الكراسي الموسيقية 99
18. حبيب العمر 105
19. دنيا وآخرة 109
20. صُرّة المكوى 115
21. حج مبرور 119
22. أُمّنا الغُولة 123

مسحوق الزهرة الزرقاء
لا يمحو كل البقع

شَدّ حبال الغسيل فوق سطح منزلنا طقس مبهج بالنسبة لي. يأتي أبي بلفات ضخمة من الحبال المَجْدُولة، ونصعد معًا. يربط طرف الحبل في عامود على زاوية السطح أو مسمار كبير دُق في الحائط، ويقذف لي بكرة الحبال، أجري ألتقطها، وأسارع إلى الجهة المقابلة قبل أبي، أنتظره إلى أن يأتي ويأخذ لفة الحبال مني، ويُثبتها على العامود، أو يلفها حول المسمار. نعاود الكَرّة إلى أن تنتهي لفة الحبال بأكملها، ولا يبقى سوى عصا صغيرة يحتفظ بها أبي كعادته دائمًا في الاحتفاظ بما يفيد أو لا يفيد، فقد تصلح لشيءٍ ما لاحقا.

تصعد "أم صابر الغسالة" وابنتها "سعدية" تحملان أطباق الغسيل الثقيلة، وتبدآن في نشر الغسيل على الحبال. أجري بين الملاءات الكبيرة المدلاة، وأرطب وجهي بقطرات المياه التي لاتزال عالقة بها، وأملأ رئتي برائحة الرابسو والكلور. أدقق النظر في الملابس البيضاء وقد استحالت إلى لون أزرق خفيف بفعل مسحوق الزهرة التي تضعها "أم صابر" في مياه الشطف لإزالة البقع من ملابس أبي الداخلية دون أن تعرف أبدًا القدر المناسب؛ تقلل منها أحيانا فتضطرُّها أمي أن تزيدها، فتضع "أم صابر" الغسيل في الماء مرة ثانية بعد أن تكون قد عصرته جيدًا وهي تُتمتم بكلمات لا نسمعها جيدًا؛ أو تُكثر منها فيستحيل لون الملابس البيضاء إلى أزرق داكن فتتبرَّم أمي وتُجبرها على شطفها عدة مرات حتى يخِفَّ اللونُ الأزرق.

أحمِلُ معي من المنزل الكرتونة البُنِّية التي أحتفظ فيها بالكتاكيت الصفراء الصغيرة التي اشترتها لي "أم صابر" من السوق تنثر حبات القمح أمامها على الأرض، وتخرجها من الصندوق كي تتمتع ببعض الدفء والضوء بعيدًا عن "حبسة" الصندوق. تتركني ألهو معها، وتؤكد عليَّ ألا ألمس الغسيل بيَدَيَّ المتسختين، وأن أراقب أفراخي الصغيرة كي لا تقترب منها أية حدأة تحوم حولها.

أتابع الصغار بزغبها الأصغر الخفيف، وأتابع غيات الحمام على أسطح العمارات المجاورة، وأسلّي نفسي بمتابعة أصحابها وقت المغربية وهم يلوحون بأعلام مختلفة الألوان لأسراب الحمام كي يتعرف كل سرب على غيته مسترشدًا بلون العلم.

عندما تهبط "أم صابر" لإحضار مزيد من الغسيل يختفي أبي أحيانا خلف الملاءات المنشورة في الناحية المقابلة حيث تقف "سعدية" أترك كتاكيتي الصغيرة تلتقط الحب، وأذهب لترطيب يدي بالغسيل المبلل دون الالتفات لتحذير "أم صابر" أجد أبي يمسك بـ"سعدية" بقوة، ويصفعها على ثدييها، يرتجّان تحت جلبابها الملتصق بجسدها من أثر البلل، وتنفر حلمتاها فيقرصها أبي منهما بقوة عقابًا لها على ذنب لا أعرفه، فلا أجرؤ على الاقتراب للدفاع عنها، وأعود مسرعة لأفراخي الصغيرة. الشيء الغريب أن "سعدية" كانت تضحك من عقاب أبي لها ولا تبكي أو تحاول الهروب من قبضة يديه القويتين.

صعدت "أم صابر" مسرعة هذه المرة ورأت أبي وهو يعاقب "سعدية". وضعتْ طبق الغسيل على الأرض وجذبت ابنتها غاضبة، وقالت لأبي:

ـ "ليه كده بس ياسي مرسي؟ البت صغيرة وما تفهمش في الحاجات دي!"

وضع أبي يده في جيبه، وأخرج عدة أوراق نقدية، ودسها في يد "أم صابر"، وقال بصوت عال:

ـ "البنت غلطت فيَّ يا أم صابر وبأدِّبها"

طاطأت "أم صابر" رأسها في الأرض، ودست النقود في صدرها.

ألملم أفراخي الصغيرة في الكرتونة، وأتأكد من عددها وأن الحداة لم تخطف أحدها أثناء ابتعادي عنها.

عُدتُ من المدرسة في أحد الأيام، فرأيتُ أمي تزعق في "أم صابر" و"سعدية" "أم صابر" تبكي وتنتحب، و"سعدية" تنظر إلى الأرض. يعلو صوت "أم صابر" قليلا فتهوي أمي على خدها بصفعة قوية. يزداد نحيب "أم صابر"، وأسمعها تقول بصوت متحشرج:

ـ "والله العظيم سي مرسي، ما حدش غيره، البت قالت لي، ده احنا مش بنسيب البيت غير سواد الليل يا ست سامية. ربنا يسترك إحنا مالناش حدّ بعد ربنا غيركم".

تتحرك أمي بعصبية.. تصمت قليلاً، ثم تقول:

ـ "خلاص، خلاص، تقعدوا معانا في الأوضة اللي فوق السطوح، وسعدية ما تعتبش باب الأوضة لغاية لما ربنا يفرجها"

ظلت سعدية حبيسة غرفة السطوح لعدة شهور. أصعد مع أفراخي الصغار، أتركها تلهو وتلتقط الحب، وأجلس مع "سعدية" و"أم صابر" في غرفتهما. تبكي "سعدية"، وتبكي "أم صابر" أمامي، وأبكي وحدي عندما أهبط مع أفراخي وقد نقصت واحدا أو اثنين.

في إحدى الليالي سمعنا خبطًا متسارعًا على الباب؛ نهضنا جميعًا فوجدنا "أم صابر" تقف منزعجة؛ ارتدت أمي الروب القطيفة الأزرق، وجرت على سطح العمارة، جريتُ خلفها وجلستُ وسط الظلام على الدرجة الأخيرة من السلم دون أن أجرؤ على الاقتراب من حجرتهما. كانت "سعدية" تئن وتصرخ ثم تكتم صوت صراخها وإن ظل عاليا بدرجة تمكّنني من سماعه. بعد وقت قصير خرجت "أم صابر" تحمل لفافة بين يديها، ونزلت السلم مسرعة حتى أنها لم تتبيني وسط الظلام. سرتُ متسللة حتى باب الحجرة، وجدت "سعدية" نائمة، وأمي تمسح وجهها بفوطة صغيرة، وتسقيها كوبًا من القرفة التي شممتُ رائحتها.

بعد نحو ساعتين عادت "أم صابر" لاهثة من صعود السلم؛ رفعت "سعدية" رأسها بصعوبة وبطء، وسألت بوهن شديد: "فين الواد يامّه؟"

خفضت "أم صابر" رأسها، وتمتمتْ: "خرجت بيه السطوح، خطفته منّي الحداية وطارت"

مربى لارنج

ـ "غِطست يا نُصراني، دفيت يا مسلم بعد اربعينين"

نينة زهرة عندها مَثَلٌ جاهزٌ لكل مناسبة. تصحو قبل أمي، تُصلي الفجر، وتتلو وِرد الصباح، وتدعو لأمة المسلمين، وتنتظرني في المطبخ. تُعد لي كوب الشاي بالحليب، وتترك "عين البوتاجاز" مشتعلة حتى تشيع الدفء في المكان. تضع ساندويتش جبنة رومي أو بيض بلدي مقلي بالمُرتة في كيس نايلون صغير أحمله معي في حقيبة المدرسة، ثم تقطع ورقة النتيجة وتصنع منها مركبًا ورقيًّا. تعطيني المركب الصغير وهي تبتسم، وتطلب مني قراءة السطر الوحيد المكتوب بخط صغير للغاية أسفل مواقيت الصلاة. أنسى البرد وأسبح مع مركبي في مياه شديدة الزرقة والدفء.

ـ "والنصراني يا نينة.. يدفا إمتى؟"

ـ "يوم القيامة، في نار جهنم بقى!"

يسقط مجدافي وأرتعش من البرد. أنظر في ورقة النتيجة التي تشير إلى "عيد الغطاس"، وأقرأ ما كتب أسفلها بصوت مرتعش، وأحمد الله أني ولدت في أسرة مسلمة لا تمل من ترك المسجل في المطبخ مفتوحًا دائمًا على إذاعة القرآن الكريم حتى لو لم يكن هناك من يسمعه، حتى تحل البركة في البيت وتتركه الشياطين.

أول يوم في العام الجديد تسألني جدتي إذا كان الأستاذ صادق قد أحضر هدايا رأس السنة والأجندات التي تظهر الأعياد السنوية، وتطلب مني أن أختار نتيجة "بنك فيصل الإسلامي" لمعرفة الشهور الهجرية والقبطية. تدعو لي، وأنا أخرج إلى المدرسة، وتحذرني من تناول أي طعام من رندا، صديقتي، بنت طنط هالة جارتنا في الشقة المجاورة.

يأتي عم قنديل بائع الزبادي كل مساء، تفتح الخادمة له الباب وتتركه لتذهب إلى المطبخ كي تحضر سلاطين الفخار الفارغة وتأخذ السلاطين المليئة بالزبادي الطازج. تنظر نينة زُهرة إلى سطحها، وتميلها قليلاً كي تتأكد من وجود طبقة خفيفة من القشطة البيضاء و"الشرش"، ترفع سلطانية الزبادي إلى فمها وتتذوق الشرش، تثني على عم قنديل أحيانا، وتوبخه أحيانا أخرى لو رأت أن خميرة الزبادي كانت قليلة أو "زيادة عن اللزوم"

أختلس النظر إلى شقة طنط هالة المقابلة، وأتخيل الشياطين التي تسكنها والظلام الذي لا يتبدد في وضح النهار، أو حتى عند إنارة المصابيح مساءً. أشعر بالأسى لصديقتي رندا، وأتمنى لو كانت مثلنا، حتى تسمح لي جدتي بالذهاب إلى شقتها، وتناول "البيتي فور" الذي تصنعه والدتها، وتحضره لنا في أعيادهم، ويكون مكانه دائمًا صفيحة القمامة دون أن تمتد يدنا لتناوله. وفي أحد الأيام دخلت "نينة" زُهرة المطبخ فجأة فوجدت الخادمة تتناول قطعة بيتي فور من الذي أحضرته لنا رندا، فلكزتها بقوة في كتفها، وقالت لها: "هاتتشوي في نار جهنم علشان بطنك يا دنيّة"

نذهب أطباق الكحك في العيد الصغير لـ"طنط" هالة، وطبق الفتة وعليه زند الخروف الضاني في العيد الكبير، وطبق عاشورة بالزبيب وعين الجمل يوم عاشوراء، فتأتي لتشكر نينة زُهرة وتثني على حلاوة الطعم وإتقان الصنعة، في حين يكون مصير أطباق كحكهم وبرطمانات مربى اللارنج صفيحة القمامة. ولما اعترضتُ على التخلص من المربى حيث لا يدخل في صناعتها أي من منتجات الخنزير قالت نينة: "بيصلّبوا عليها البُعدا"

جلستُ إلى مكتبي أتظاهر باستذكار دروسي بينما أبحر مع صوت فيروز وهي تغني للقدس العتيقة. جاءني صوت نينة هزيلا خافتًا، جريت إلى حجرتها فوجدتها تصارع إحدى نوبات غيبوبة السكر. لم يكن أمامي سوى طنط هالة. وضعت يدي على جرس

الباب، ولم أتركه سوى بعد أن سمعت أصوات خطوات تقترب. فتحت طنط هالة الباب وعلامات الانزعاج تبدو على وجهها. قلت لها إن نينة زهرة تعاني من غيبوبة سكر ولا أعرف كيف أتصرف، هدأتني طنط هالة، وتركتني في الصالة حتى تأتي ببرطمان المربى، ملعقة واحدة كفيلة بإعادتها لوعيها حتى تأتي أمي وتستدعي الطبيب. وقفت وسط الصالة، لم تكن معتمة كما قالت جدتي. كانت مضيئة ولها رائحة طيبة. على الحائط علقت صورة كبيرة بإطار ذهبي عريض لـ"مريم العذراء"، برزت ملامحها الهادئة وطرحتها البيضاء الشفافة التي تشبه طرحة جدتي تنسدل على جانبي وجهها، وعلى ذراعيها غفا "المسيح" هانئًا مطمئنًّا. جاءت طنط هالة ببرطمان المربى، أخذته في عجالة وسبقتُها إلى شقتنا.

رفعتُ رأس نينة زُهرة وأسندتها على فخذي، فتحتُ برطمان المربى وأخذتُ ملعقةً صغيرةً منه. فتحتْ نينة زُهرة عينيها ونظرتْ إلى البرطمان، أغمضت واحدة ونظرت بجانب عينها الأخرى للبرطمان، وقالت بصوت خفيض: "سمّي بالرحمان وادِيني معلقة كبيرة"

الحيّ أبقى

نينة زُهرة، جدتي، أم أبي. تحب أمي، وأمي تحبها في حضور أبي، ويمقتان بعضهما بلا مواربة ما إن تبتعد خطواته عن باب المنزل.

ذهب أبي إلى مدينة الفيوم، بلده ومسقط رأسه ومقر إقامته قبل أن ينتقل إلى القاهرة ـ أو "مصر" كما يسميها ـ ويستقر بها للعمل والزواج. ذهب كي يحضر خزين العام من الزبدة البقري التي أنتظر أن تقوم أمي بتسييحها حتى أحصل على طبق من البيض المقلي بالمُرتة التي تتبقى في الحلة الكبيرة، وصفائح الجبنة البيضاء الإسطمبولي القديمة التي تحب أمي تخزينها طوال العام، ولا تفتحها سوى مع قدوم شهر رمضان لتصبح الطبق المفضل في

السحور جنبًا إلى جنب مع الخيار الطازج والزيتون الأسود والفول المدمس. سافر أبي تلك المرة وعاد بلا زبدة بقري أو جبنة بيضاء قديمة أو جديدة. عاد بجدتي التي مرضت أثناء زيارته، ولم يشأ أن يتركها مع ابنتها المتزوجة وإلا "أكل أهل البلد وجهه" لتركه أمه المريضة في بيت رجل غريب هو زوج ابنتها.

كانت نينة زُهرة بيضاء. وكما حكت لي ـ قبل أن يملأ النمش البني وجهها وينحني ظهرها ـ أنها كانت طويلة في شبابها. شعرها لونه مزيج فريد بين ذهبي القمح وأبيض الثلج وأحمر الحنة، ناعمٌ غزيرٌ كالمخمل، تضمه في ضفيرتين، وتضع دبوسين من الذهب الخالص في غُرتها. تزوجت في شبابها عمدة قرية "تلات"، وخلّفت منه عمي كمال الأخ غير الشقيق لوالدي، دلوع الحاجة، والغالي ابن الغالي، على أساس أن نسب والده العمدة يضفي عليه صفات أرقى من سائر أبنائها من زوجها الثاني المنتمي لطبقات الشعب الكادحة، بما فيهم، أبي وعمتي "فاطمة". طُلقت نينة زُهرة من العمدة لأسباب لا أعرفها، وتزوجت جدي بعد انتهاء شهور العدة بعدة أسابيع كما أصرت هي؛ نكاية في زوجها السابق، ولكنها لم تنس يومًا أنها كانت "مِرات العمدة" بما لهذه الكلمة ـ أو بالأحرى المنصب ـ من سحر ونفوذ.

جاءت نينة زُهرة إلى بيتنا، وبعد أسبوعين شفيت تمامًا بعد أن تنفست هواء مصر العليل، وذاقت خير ابنها وخدمة زوجة ابنها، خدمة فندقية من طراز خمس نجوم. تفانت أمي في توفير كل سبل الراحة لحماتها ورعايتها حتى تشفى سريعًا وتعود من حيث أتت. خابت حيلتها وارتدت إلى نحرها. رفضت نينة زُهرة العودة مرة ثانية للفيوم، بقيت في بيتنا، واحتلت غرفتي الصغيرة في بادئ الأمر، ثم الجزء الأصغر من قلب والدي المتبقي لأمي بعد عناء العمل وعناء جدتي في إبعاده عنها.

بدأ صراع الجبابرة في البيت بين أمي ونينة زهرة على كل صغيرة وكبيرة، بدءًا من تصريف أمور البيت العادية، واختيار يوم الغسيل، وأجرة المكوجي، وانتهاءً بتحديد نوع الطعام اليومي.

وبعد شهور طويلة من المعارك، صغيرها وكبيرها، خافيها ومعلنها، انتصرت نينة زُهرة على أمي بالضربة القاضية. جاء علي أخي الصغير إلى الدنيا، فالتصقت أمي بعلي، وانفصلت عن العالم بأسره، حتى أنا. زاد بكاء علي، وزاد تبرم والدي، ولم تحاول أمي إسكاته حين يبكي مساءً.

وجدت نينة زُهرة ضالتها بلا مجهود. أوعزت لأبي بالانتقال إلى حجرتها بحجة أن بكاء علي يزعجه ليلاً وهو "شقيان يا حبة عيني طول النهار ومحتاج يرتاح ساعتين". هكذا عللت لأمي

عزال أبي من غرفة النوم الرئيسية، دون أن تخفي فرحتها لعودته لحضنها وتخليه عن حضن أمي.

كنت أسهر للمذاكرة قبل الامتحانات لساعة متأخرة من الليل، ومرة خرجت من حجرتي كي أعد كوبًا من الشاي بالنعناع الناشف الذي نحضره من الفيوم، فوجدت أمي تجلس في الظلام بجوار شباك الصالة. كانت ترتدى قميص نوم ورديًّا رائعًا عاريًا عند الكتفين، بدت فيه كإحدى حوريات البحر الذي تعشقه وتذكره دائمًا في الحكايات التي كانت تحكيها لي قبل النوم عندما كنت صغيرة، حتى لو كانت الأحداث لا علاقة لها بأي بحر. كانت أمي تحتضن عليا، أخي الصغير، وتبكي بلا صوت.

أصبح المكان بجوار الشباك هو البقعة المحببة لأمي. تجلس كل ليلة في الظلام تحتضن عليا وتبكي. الشيء الوحيد الذي كان يتغير كل يوم هو لون قميص نومها العاري. كنت أتعمد عدم الالتفات ناحيتها، ولما بدأت في رفع صوتها حتى أسمع بكاءها، أو أتجه إليها، بدأتُ أضع قطعتي قطن صغيرتين أسد بهما أذنيَّ وأنا ذاهبة للمطبخ كي أعد كوب الشاي بالنعناع، أو أحضر زجاجة مياه باردة من الثلاجة.

ثم جاء الفرج، وإن تأخر كثيرًا، انتقل أبي للعمل في مرسى مطروح. اعتبر أبي قرار النقل نفيًا صريحًا أو عقابًا مقنَّعا، أما أمي فقد تبدلت حالها تمامًا، لمحتُ بسمتها من جديد، وانكبت بهمة ونشاط على حزم أمتعتنا. استطاع أبي بعد مشقة أن يقنع نينة زُهرة بالبقاء بعض الوقت مع عمتي في الفيوم إلى أن يجهز لنا سكنًا في مرسى مطروح ويذهب ليحضرها، ولما تبرمت لأنه سيأخذنا معه منذ البداية، وأنبته قائلة:

ـ "وهي يعنى جت عليّا!"

علل أبي الأمر باحتياجه لأمي لتجهيز السكن وتنظيفه.

فرحت أمي بقرار النقل وكأنه هدية لها من السماء، ولم تعترض على الحجة التي ساقها والدي مادامت ستخلصها من نينة زهرة.

وانتقلنا إلى مطروح. سكنّ إداريٌّ ضيّق، ولكن به نوافذ تفتح على البحر الواسع. سارت أمي في المنزل بقميص نومها الوردي العاري في النهار. لم تعبأ بارتداء ملابس ثقيلة اتقاءً للبرد. دبت روحٌ جديدةٌ داخلها صبغت وجنتيها بلون وردي كلون قميصها، لكنها مع ذلك ظلت تشاطرني سريري، ولم تنتقل لحجرة والدي بالرغم من اختفاء نينة زُهرة منها.

دأبت أمي على الوقوف في الشباك تراقب بحرها النيلي كما تسميه. تحتضن عليا أخي الصغير الذي بدأت تهدهده حتى يتوقف عن البكاء. وذات يوم دق جرس الهاتف الثابت، سارعتْ لرفع سماعة التليفون كي لا يستيقظ أبي وتسمع تبرمه من شيء لا ذنب لها فيه.

ـ "أبلة فاطمة؟"

جاءها صوت عمتي فاطمة، الأخت الشقيقة لأبي.

ـ "مصيبة، مصيبة كبيرة؛ الحاجة اتوفت. ياللا حضروا نفسكم، مشواركم طويل. مش هانعمل حاجة غير لما تيجوا"

رفع أبي سماعة التليفون من غرفته، واستمع إلى المكالمة. لم يتدخل أو يتحدث إلى عمتي إلى أن أنهت المكالمة. تركت أمي الصالة، ودخلت إليه في حجرته، وجدته جالسًا ممسكًا بسماعة التليفون ويبكي على حرف السرير كبكاء علي الصغير، وإن كان أكثر حدة وأعلى صوتًا.

ماتت نينة زُهرة وكنّا نظن أن الموت سيخشى الاقتراب منها كما يخشاها الجميع.

اقتربت أمي من والدي وهو يبكي وينتحب فأشار لها أن تتركه ولكن دون غلظته العادية، بل بدا رقيقًا وادعًا. غادرت أمي الحجرة،

وطلبت مني تحضير شنطتي، ومساعدتها في غلق النوافذ ومحابس المياه، وذهبت لتحضير شنطة السفر وملابس سوداء للعزاء وملابس أبي وغيارات علي. انتهت من تحضير شنطة السفر، خلعت قميص نومها الوردي العاري وارتدت بذلة وبلوزة سوداء. خرج أبي من حجرته حاملاً عليا، نظر إليَّ وإليها وإلى حقيبة السفر على الأرض. دار بعينيه الباكيتين في الغرفة حتى وقعتا على قميص نومها الذي تركته على السرير. وقف ساكنًا لحظة، ثم مد يده وأخذه. فتح حقيبة السفر ودسه بين ملابس علي.

ترتيلة الكاف

"باسم الكاف والنون، والسر المكنون"

"باسم الكاف والميم، والسر المبين"

"باسم الكاف والضاد، مولّف الأضداد"

أفيق ليلاً فأجد أمي ساهمة بجواري تمسك مسبحتها، وتهتز إلى الأمام والخلف كمقعد هزاز. ترتل هذه المتتالية بصوت أقرب للفحيح. لم أفهم أبدًا لماذا تبقي على حرف "الكاف" وتغير ما يليه! مات أبي فهجرت سريره، وجاءت إلى جواري..لا تنام، ولا تدعني أنام. أتركها مع "ترتيلة الكاف"، وأحاول أن أقتنص إغفاءة قصيرة قبل ذهابي إلى المدرسة.

تشعرني رائحة لحم الضأن بالغثيان حين سلقه. تسبب آلامًا حادة في معدتي، وقد تدفعني لإفراغ ما بها على أرضية الحجرة قبل أن أصل لدورة المياه ـ لكني أحبه مشويًّا على الفحم على أية حال. ملأت أنفي ومعدتي الرائحة عندما فتحت باب الشقة ودخلت.

أُضيئت الحجرة الكبيرة المطلة على السلم بإضاءة خافتة. لا تُفتح هذه الحجرة سوى نادرًا لاستضافة الأقارب والضيوف الوافدين على غفلة، وتظل مغلقة فيما عدا ذلك طوال العام باستثناء أيام التنظيف. اهتز لهب الشموع، فتراقص الضوء على الجدران مشكلاً تكوينات ضوئية تظهر وتختفي. عبقت الحجرة رائحة بخور غير محببة يحترق على صفيحة ساخنة حمراء. آلمت معدتي التي أنهكتها بالفعل رائحة الضأن المسلوق. تحولت قطع الفحم السوداء غير المستوية إلى كتل نارية كأعين الذئب في أفلام الرعب، بينما تحرق البخور وخشب الصندل وقطع اللبان الذكر الصفراء التي تشبه أسنان العجائز. تطايرت بعض الشذرات هنا وهناك محدثة طرقعة مثل الألعاب النارية التي كنا نطلقها في رمضان فوق سطح عمارتنا. تشبعت الغرفة برائحة عرق ثقيل لا ينفذ إلى الصدر مهما حاولت حشره كفرس حرون حوافر، حوافر حيوانات، حوافر كثيرة لُضمت في إزار رفيع معقود على وسط رجال ثلاثة، فوق

جلابيب كانت بيضاء في وقت من الأوقات، على ما يبدو، قبل أن تتلطخ بالعرق الغزير والأوساخ. وقف الرجال يهتزون بشدة بينما يقرعون دفوفًا بقبضات قوية تخترق القلب مباشرة. تهتز الحوافر مع أجساد الرجال، فتصدر صوتًا عاليًا يذكرني بنهيق الحمير، وصهيل الجياد التي كانت تختال يومًا على قوائمها قبل أن تُحبس في وسطهم.

احتقن زوري، وارتفعت درجة حرارتي. حولتني "مس" زينب لحكيمة المدرسة، قاست الحرارة فوجدتها تقترب من الأربعين. أعطتني قرصي "أسبوسيد"، وجواب إجازة من المدرسة أقدمه لعم ربيع، حارس مدرستنا، حتى يفتح لي باب المعتقل قبل موعد الانصراف الرسمي.

طرقت الباب فلم تفتح أمي. لاشك أن حالة الذهول والانفصال عن العالم قد عاودتها مرة ثانية. تكررت الحالة بعد وفاة والدي منذ عامين، ذهبنا بها لأطباء كثيرين، أدرنا في الليل والنهار اسطوانات الشيخ المنشاوي الذي أعشق صوته، وعبد الصمد الذي لا أعشق صوته وآخرين، تلوْنا بجانبها القرآن، كبّرت جارتنا نينة أم أحمد في أذنيها تسعًا وتسعين مرة، نثرنا الماء الذي تلت عليه الأوردة في أركان البيت، حصَّنتها بالأحجبة والرقى الشرعية وغير الشرعية، ولا تزال أمي في غيابها.

سمعت حديثا خافتًا يدور بين نينة أم أحمد وأختى الكبرى عن "حلقة زار"، و"الشيخة نادرة" أشهر "كودية"، وكلامًا بدا جادًّا عن "مفعول السحر"، "شفاء البدن"، و"طرد العلة من المعلول". دفعت الباب دون استئذان وصرخت في وجهيهما. لم يهتز جفنا أمي من اندفاعي. وضعتْ أختى يدها على فمي تكتم صراخي. نظرت لي "نينة" أم أحمد معاتبة: "حبِّي أمك شوية يا ندى، عجبك حالها؟ خلينا نساعدها!"

ارتفع في منتصف الغرفة هيكل مغطى بملاءة بيضاء تضطرب تحته حركة خافتة. كان الحجاج يطوفون حوله وهم غائبون، الجارات وصديقات أختي الكبرى من العمارة التي نقطنها والعمارات المجاورة ومن الكلية. على يمين الحجرة جلست سيدة ستينيّة ذات بشرة داكنة تدخن النارجيلة بشراهة، وتنفث دخانًا أبيض كثيفًا يتشكل في دوائر تتصاعد إلى أعلى باتجاه الكعبة المنتصبة في المنتصف، ويُشيع في المكان رائحةً عطرية. وعلى يسارها سيدتان تمسكان بدفوف أكبر من تلك التي يمسكها الرجال، ويرددان أغنيات بكلمات غير مفهومة.

صفقتْ السيدة الستينيّة بيدها مشيرة للجوقة وضاربي الدف: "دقة بنات الهندزة" تنحّت الجارات المسنّات، وبدأت صديقات أختى في الدخول.

كانت أول من قفزت برشاقة إلى الحلبة أبلة ألفت، صديقة أختي التي تقطن في الدور الأرضي "السلاملك" خبطت الأرض بقدميها، ورفعت رأسها، وثبتت نظرها على نقطة واحدة أمامها كراقصة "فلامنكو" إسبانية. ثم بدأت إغماض جفونها، استنشقت نفسًا عميقًا ثم أخذت في التمايل على أنغام الدفوف. ارتدت أبلة ألفت عباءة داكنة الحمرة. أمسكتْ طرف العباءة بيديها الدقيقتين، ورفعته حتى ركبتيها. برزت ساقاها البضّتان، وطلاء أظافر أصابع قدميها الأحمر القاني. كانت تتمايل على الإيقاع يمينًا ويسارًا بهدوء أولا، ثم بدأت ترتعش وتقوى دقات قدميها على الأرض. برز أحد ثدييها من فتحة العباءة واختفى فجأة كأرنب مذعور. أومأت السيدة لأحد الرجال بطرف "لَيّ" الشيشة، فسارع بوضع كفيه تحت إبطي أبلة ألفت. ضربته أبلة ألفت بكوعها، وأبعدته عنها، وواصلت تمايلها المحموم. ابتعدت جميع الفتيات، وتحلقن حولها وهي تتمايل وتتلوى لا تكاد تلمس الأرض من خفتها كما لو كان الفحم قد قفز من الصفيحة وانتشر بساطًا تحت قدميها.

دارت أبلة ألفت وتمايلت وتلوت ورقصت مع أنغام الدفوف حتى الغياب. ومع تسارع الإيقاع تحولت لفراشة ترتجف وتنتفض. وفجأة ارتمت على مقعد مجاور وسط اهتزاز ضوء الشموع ودق الدفوف وعرق الرجال. سارعت بعض النسوة برش ماء الورد على وجهها. فتحت عينيها بهدوء، مسحت ما تبقى من قطرات على

جبينها، وقامت تبحث عن حذائها، ثم انسحبت خارجة من الغرفة تاركة خلفها حالة من النشوة والترقب والأرق.

سكنت الحجرة لحظات، رفع الرجال زجاجات مياه بلاستيكية وأفرغوا القليل منها في أفواههم والكثير على رءوسهم وصدورهم. خيَّم الصمت برهة، ثم عاودوا الدق.

هذه المرة اتجهت الأنظار نحو مقعد بعيد لم ألحظه، الفوتيه المذهَّب الذي كان يتصدر الصالون تحت صورة أبي قبل أن ترفعها أمي بعد وفاته. جلست أمي، شبه نائمة، ترتدي جلبابًا رجاليًا أبيض واسعًا جدًّا عليها، وطرحة بيضاء تنسدل حتى وسطها. زاد اللون الأبيض شحوبًا إلى شحوبها.

يا الله! تجلس أمي ضعيفة، منهكة، مستسلمة. ارتمت ذراعاها إلى جانبيها، وسقط رأسها على كتفها اليمنى. أشارت "الكودية" مرة ثانية بطرف "لَيّ" الشيشة فقامت إحدى السيدتين وأخرجت البنات من الحجرة.

تسارعت دقات قلبي دون أن أعرفَ السبب. بدأت النسوة في ترديد كلمات غير مفهومة سوى المَذْهب "يوه يا سيدي يا سيدي"، "هِلّ علينا يا سيدي". في حركة مباغتة، رفع أحد الرجال طرف الملاءة الموجودة على الهيكل المنتصب وسط الغرفة، جفل ديك رومي أسود لامع كبير الحجم، أدار رأسه عدة مرات في

الحاضرين، اهتز اللغد الأحمر القاني أسفل رقبته، ثم أطلق صيحته الشهيرة "كر كر كر كر"

جذبه الرجل من القفص وذهب نحو أمي. أخرج سكينًا لمع نصله الفضي، وثنى رقبة الديك إلى الوراء، نحر عنقه بسرعة شديدة أمام أمي ورفعه فوق رأسها. انتفض الديك وسالت الدماء فوق رأسها ساخنة، أو هكذا شعرت وقتها. تلطخت طرحة أمي وجلبابها بالدماء القانية. قامت "الكودية" وغمست كفها في الدماء النازفة من رقبة الديك، وطبعت كفًا على صدر أمي. ولما ظلت على سكونها، بدأت الكودية في مسح وجهها بالدماء. بدأت أمي ترفع رأسها بالتدريج، عاودت الدفوف نقرها، والسيدتان نواحهما، والرجال والحوافر اهتزازهم.

ترك الرجل الديك الذبيح وهو لايزال ينتفض وينزف بالقرب من قدمي أمي، ورفعها من وسطها. أدارها بحيث أصبح ملاصقًا لظهرها، وأوقفها على قدميها. جرَّها إلى وسط الحجرة حول الهيكل العاري والقفص الذي هجره السجين قبل ذبحه. بدأت الدفوف تدق، والرجل ملتصق بجسد أمي. توقف لحظة وحرَّر يدا واحدة فك بها حزام الحوافر المعقود على وسطه وألقاه أرضا. أحكم التصاقه بجسدها واضعًا يده اليسرى على وسطها أسفل ثدييها دون أي حواجز بين الجسدين هذه المرة.

بدأت أمي الملطخة بالدم وعرق الرجل وجسده الساخن في التمايل، والتمايل، والبكاء الخافت، ثم العالي، ثم النحيب. رفعت يديها إلى أعلى، وحاولت بوهن أن تبعد الرجل عنها، زاد التصاقه المحموم بها، وارتفعت دقات الدفوف وصوت النسوة وصراخ أمي الهستيري، هبَّت دفعة هواء لا أعرف مصدرها أطفأت الشموع، كل الشموع. ظلام دامس غلف كل شيء، فقط ذراعا أمي ينتفضان في الهواء، والديك يرتجف على الأرض، وأنا ارتجف في ركن منزوٍ. دوَّت صرخة هائلة وسمعت ارتطام شيء على الأرض بقوة.

أضاءوا الأنوار، الكودية تضع "لَيّ" الشيشة جانبًا بعد أن فرغ الحجر، تقبض الأتعاب من نينة أم أحمد، الرجل يرتدي حزام الحوافر يستر به وسطه وبلله، أمي مكوّمة على الأرض وجلبابها مشلوح حتى الفخذين وبجوارها الديك الرومي الذبيح وقد توقف انتفاضه ونزيفه.

كبدة ومخ

فهمتُ، فلم أعدْ أحزن. أتألمُ قليلاً، أو كثيرًا أحيانًا. ولكني لا أحزن. هكذا صرت.

كنت دائمًا الطفلة التي يسيل المخاط من أنفها. تسير متشبثة بذيل فستان أمها تحاول اللحاق بها في طرقات ضيقة مزدحمة، فلا ترى سوى نصف العالم، بينما يختبئ النصف الآخر وراء الفستان الأسود. لم تكن تعرف آنذاك أن نصف الشيء، ونصف الحقيقة، ونصف الحياة سيكون نصيبها من الحياة.

قرصني الدكتور نادر في خدي الأيمن. يؤلمني ألمًا شديدًا، ويؤلمني خدي الأيسر أيضًا. ربما يكون قد قرصني في خدي

الأيسر ونسيت، أو ربما يكون قد قرصني في الاثنين. بكيت لأمي وأنا أضع كفي على خدي من شدة الألم فعنفتني قائلة إنه يحبني ويدللني كابنته. عرفت وقتها أن الإيلام قد يكون طريقة لإظهار الحب!

على السرير المعدني في قصر العيني يرقد الأب بكليتين كليلتين وصلعةٍ واسعةٍ تعتلي جبهةً عريضةً، وشاربٍ تراه أحيانًا في بعض الزيارات، ويختفي أحيانًا أخرى بلا تفسير. السرير من الصاج الأبيض به أجزاء تآكلت قشرتها وتركت مكانها بقعًا سوداء صدئة تعدها كل مرة وتتأكد من أماكنها. وعلى السرير المجاور يرقد الأستاذ عبد المؤمن، رجل آخر طويل ونحيل مثل الأنابيب الرفيعة التي تربطه بأكياس ممتلئة بسائل شفاف، معلقة على عمود حديدي، وأخرى ممتلئة بسائل أصفر وآخر أحمر تستقر على الأرض.

أحيانا يأخذ "ساندوتش" من تلك التي تحضرها أمي لوالدي من المنزل، يخفيه أسفل المخدة بعيدًا عن أعين الممرضات حتى ينتهي من جلسة الغسيل، ثم يبدأ في المزاح مع أبي. "قوم يا سيد" "لأ. قوم يا عبد المؤمن إنت الأول. "إنت الكبير" "نعم يا خويا؟ ده أنت لو كنت لقيت واحدة نفسها حلوة كان زمانك خلفت أدي" وهكذا إلى أن تأتي الممرضة. تلعب لعبة "حادي بادي كرنب زبادي"

إذا كانت "الغزالة رايقة" كما يقول عمو عبده، أو ترفع الكوفرتة المشجرة بعنف من أحد السريرين دون "حادي بادي" إذا كانت "شايلة طاجن ستها" أيضًا كما يقول عمو عبده، وتختار هي بأيهما تبدأ دون سلام أو كلام.

في البداية كانت تصحبها أمها مرة واحدة في الأسبوع، ثم زادت الوتيرة ـ مع احتباس البول ـ إلى مرتين أسبوعيًّا، ثم قرر الأطباء ضرورة الإقامة الدائمة في قصر العيني للأب، والإقامة المؤقتة لها ولأمها.

ينظر الأب في الصينيّة المعدنية المقسمة إلى أقسام صغيرة، التي وزعتها "السستر" في الصباح، واحدة له وأخرى لعمو عبده. في قسم منها قطعة جبن بيضاء مربعة، ومثلث جبن نستو بورقة زرقاء، وعبوة مربى مستطيلة، غالبًا ما تكون "مشمش"، ورغيف خبز كامل الاستدارة. كوب بلاستيك أسطواني أبيض به نصف ملعقة شاي خشن، وملعقة صغيرة بيضاء، تتوه بين المستطيل والمربع والمثلث والدائرة. تعطيها أمها عبوة المربى وتبدأ في التهامها ـ بالملعقة الصغيرة ـ متلذذة بطعم المشمش المزز إلى أن يأتيها صوت الأب:

"هفتان يا سامية. نفسي في ساندوتش كبدة ومخ!"

يزعق بنبرة تفتقر إلى المودة. يزيح صينية الطعام، ويلقي بغضب طفولي ساندويتشات الجبنة القريش والخيار التي أحضرتها أمي. تتردد قليلاً وتنظر يمينًا ويسارًا وكأنها تبحث عن ملاذٍ لها في الفراغ المجاور. يتحرك رأسها صوب الأستاذ عبد المؤمن على السرير المقابل لسرير أبي. تتطلع إليه وكأنها تستغيث به، يسعل سعلة قوية ويدير وجهه ناحية الجدار الباهت متجاهلاً نظرتها المستغيثة.

جاءت الممرضة ووقع اختيارها على أبي. رفعت الأنابيب، وبدأت في دفع السرير خارج الحجرة متوجهة حيث حجرة الغسيل الكلوي. نظرت إلى الأستاذ عبد المؤمن وقالت له: "مش عاوزة شقاوة، دورك بعده" تركتنا وغادرت. يقوم عمو عبده بهدوء من سريره، يضع قدميه الحافيتين على الأرض، أشاهد حفرًا طولية في كعب قدمه وشعيرات متناثرة على الساق. يشد طرف جلبابه كي يغطي ساقيه الهزيلتين، يدفع العمود الحديدي إلى الأمام فيهتز كيس المحاليل الشفاف يمينًا ويسارًا. أراقبه، وهو يتحرك كبندول الساعة، مترقبة سقوطه على الأرض بين لحظة وأخرى، وأتخيل

الغرفة وهي غارقة في المحلول الملحي والبول والدم. يتجه نحو الباب أولاً، يواربه ثم يقترب من أمي.

"محل الرفاعي مش بعيد. اخطفي رجلك وهاتيله الكبدة والمخ اللي نفسه فيها" ثم يضيف بصوت خافت غريب: "الحالة متأخرة"

نهضت أمي من جواري فزعة. أمسكتُ بيدها كي أرافقها في رحلة البحث عن "الرفاعي". دفعَتْ يدي جانبًا وجرت خارج الغرفة الموارب بابها لشراء ساندويتشات كبدة ومخ، والأستاذ عبد المؤمن يقف أمامي بقدميه الحافيتين، وكعبه المشقق، وجلبابه المكرمش، وعموده الحديدي، وكيس المحلول المعلق كبندول الساعة، وأكياس البول والدم الملقاة على الأرض أمامي.

اقترب مني وفتح فمه مبتسمًا. كان طويلاً جدًّا، ونحيفًا جدًّا، ومخيفًا جدًّا، وأمي تشتري ساندويتشات كبدة ومخ لأبي من محل لا أعرف إن كان قريبًا أو بعيدًا جدًّا. بانت أسنانه الصفراء التي تحدها خطوط سوداء من جانبيها. تآكلت السنتان الأماميتان وبدتا أقصر من الأسنان المجاورة، تهدلت شفتاه فكشفت عن لثةٍ حمراء قانيةٍ تعوم في لعاب غزير. اقترب مني أكثر فأكثر، وأنا جالسة على طرف مقعد حديدي بارد. تشبثتُ بالمقعد، ونظرت ناحية الباب.

رفع سبابته على فمه المفتوح فلاحظت أظافر صفراء تخفي أوساخا سوداء أسفلها. في لحظة واحدة مد يده وقرصني في ثديي الأيمن بقوة، ثم انتقلت يده بسرعة شديدة واعتصر الثدي الأيسر حتى ظننت أنه سينفجر كأكياس المحلول والبول والدم التي تتدلى منه، ثم أمسك ضفيرتي الطويلة وضغط رأسي على بطنه ـ أو ربما أسفل قليلاً من منطقة البطن ـ صرتُ أتنفس بصعوبة. غرقتُ في رائحة دواء وعرق وبول وروائح أخرى لا أعرفها. قد تكون رائحة المحلول المعلق في ذراعه، ورائحة الدم الفاتح الموجود في الكيس الشفاف، ورائحة ساندويتشات الكبدة والمخ التي ذهبت أمي لإحضارها. نزعتُ رأسي بصعوبة من فوق جلبابه، وبدأت أضغط على ثديَّ كي أخفف آلامهما. استجمعتُ كل قوتي وبصقت في وجهه. رفع يده ومسح بصقتي بظهر كفه. التفت بهدوء ومضى وهو يجر خلفه كيس البول والدم، وكيس المحلول يتأرجح على العمود الحديدي أمامي كبندول الساعة.

أحسنت يا عم الشيخ

استيقظتْ صباح يوم الجمعة على صوت رجل يتلو آيات من القرآن داخل بيتهم.

قفزت من سريرها وجرت ناحية الباب، فتحته وتطلعت للخارج.

رأته يجلس على الكنبة الكبيرة الموجودة في الناحية اليمنى من الصالة، وفي مواجهة باب الشقة.

كان شيخًا ضريرًا اتفقت معه أمها بعد وفاة والدها كي يأتي كل يوم جمعة في الصباح، ويتلو القرآن.

جلس الشيخ الضرير متربعًا على الكنبة، يرتدي جلابية زرقاء

مخططة بخطوط طولية رفيعة من اللون البيج، وطاقية من نفس اللون. عيناه مغلقتان وكأنه قصد لصق جفونه بغراء أو صمغ لسبب لا تعرفه.

رفع الشيخ رأسه إلى أعلى، ومال رأسه قليلاً إلى الناحية اليمنى من كتفه، وبدأ يتمايل يمينًا ويسارًا رافعًا حنجرته بصوت رائع لم تسمع صوتا في حلاوته من قبل.

جلست متسمِّرة في كرسي أمامه تراقبه في فضول مأخوذة تماما بصوتٍ بدا لها أنه يأتي من السماء.

جرت إلى المطبخ وقالت لأمها: "ماما. مين الراجل اللي بره؟"

ـ "ده الشيخ طه. خدي كباية اليانسون له وحاسبي تدلقيها"

أطبقت بكلتا يديها على كوب اليانسون محاذرة تماما ألا ينسكب. لا تريد أن تفسد أي شيء ولو بسيط يقدم لهذا الذي سحرها صوته.

قدمت له كوب اليانسون وجلست تراقبه منصتة.

بدأت تتمايل معه يمينًا ويسارًا رغمًا عنها محاكية نفس حركاته. لم تكن تمايلاته رتيبة بل كانت تخف وتتزايد تمشيًا مع وقع نبرات صوته، فتأتي رقيقة أحيانًا، مندفعة أحيانًا أخرى. هل شعرت وقتها

أنها تركب موجة أم مرجيحة تأخذها للسماء وتلقي بها في حنو على الأرض، ثم ترفعها مرة ثانية!

بعد وقت لم تدرك أقصُر أم طال، شعرت بتقلصات غريبة في النصف الأسفل من جسدها. أطبقت فخذيها بشدة واحدًا على الآخر وهي لا تزال تتمايل، وظلت كذلك حتى هدأت تمامًا.

ختم الشيخ طه تلاوته ورفع كوب اليانسون يرشف منه رشفته الأخيرة.

ـ "أحسنت يا عم الشيخ"، قالتها بأنفاس متسارعة وارتباك لا تفهم سببه.

أدار رأسه ناحيتها. خُيل لها أنه، هذه المرة، كان يراها.

نكست رأسها واستدارت ناحية حجرتها صامتة. دخلت وأوصدت الباب.

السالوبيت

في الغد أكمل أعوامي العشرة.

لم نكن نحتفل في أسرتي بأعياد الميلاد أو نهتم بها كثيرًا، لكن أجمل ما يميزها هو البيجاما الجديدة التي أحصل عليها عشية عيد ميلادي.

هذا العام جاءت أمي بقطعة قماش أبيض رائع به نقوشات زرقاء رقيقة لعصافير وطيور، ما إن وقعت عيني عليها حتى سمعتُ غناءها.

ذهبنا إلى عمي مختار، والد صديقتي سها، وصاحب والدي من

سنوات طويلة حتى يحيك القماش ويحوله إلى بيجاما رائعة، كما هو الحال في كل عام.

لم تنقطع صداقتنا مع أسرة عمي مختار بعد وفاة والدي. الغريب أنها قويت بصورة كبيرة، ثم بصورة أكبر بعد وفاة "أبلة" تهاني، والدة صديقتي سها، وزوجة عمي.

جاء عمي مختار يوم عيد ميلادي، بعد أن انتهى من عمله حتى يعطيني البيجاما.

في كل عام كان يقوم بتفصيل البيجاما من قطعتين. هذا العام أتى بشيء مختلف، خاط القماش قطعة واحدة ملتصقة مثل "أفارول' العمال، بأزرار بيضاء من الأمام وبلا أكمام، وقال لي إن هذ الموديل يسمى "السالوبيت"

أسرعتُ إلى حجرتي وارتديت "السالوبيت" التصق تمامًا على جسدي، وبدت ذراعاي كاملتين منه إذ إن حرف الكُمّين لم يكز محاذيًا للكتف، ولكنه كان منحدرًا في اتجاه الرقبة كاشفًا مساف أكبر من كتفي وذراعي.

وعند الصدر لاحظت لأول مرة نفور زبيبتين صغيرتين لم أرتح لمنظري في المرآة أول الأمر، ولكن أسعدني التصاق السالوبيت بجسدي، خاصة عند منطقة الصدر.

جريت إلى الصالة الفسيحة التي كان يجلس فيها مع أمي يشرب الشاي بالنعناع الفيومي الذي تعده له كلما يأتي لزيارتنا.

ما إن رآني عمي مختار حتى توقف عن شرب الشاي، ونظر لي نظرة طويلة، ثم وضع كوب الشاي على الصينية، واستأذن أمي في دخول الحمام.

نظرتُ إلى أمي حتى أسمع رأيها. توقعت أن يعجبها السالوبيت، ويعجبها شكل جسمي الذي بدأ يضيق من الوسط ويتسع قليلا من أسفل.

ـ "إزاي مختار يعمل كده؟ إوعي تخرجي قدام عمك مختار وانتي لابسه كده تاني!"

صرخت أمي في وجهي.

لم أعرف وقتها هل كانت تنهاني عن الخروج من حجرتي وأنا مرتدية السالوبيت أمام أي أحد، أم أن النهي كان مرتبطا فقط بالظهور أمام عمي مختار!

الليلة عيد

أشهر قليلة وتكمل عامها التاسع.

جاءت أم فاطمة، زوجة البواب التي تحبها كثيرًا، حاملة معها قطعة قماش لونها أصفر فاقع وعليها نقوش لبطات حمراء اللون.

ـ "إيه رأيك يا جميل؟"

خطفت القماش من يدها، وانطلقت خارج غرفتها حتى تجبرها على الجري وراءها ومحاولة إمساكها كما تفعل دائمًا. لخيبة أملها، لم تفعل هذه المرة، وقالت وهي مقطبة جبينها: "خلاص بقى كلها يوم وتيجي ليلة العيد، لازم نكبر بقى."

بدت الكلمات مبهمة وقتها بعض الشيء. عن أي عيد تتحدث؟ هل هو عيد ميلادها؟! لا، كنا في شهر يونيو وعيد ميلادها في شهر سبتمبر. هل تتحدث عن العيد الصغير أو العيد الكبير؟ ما من أعياد تقترب. رجعتْ بقطعة القماش وهي تشعر بريبة لم تفهم سببها، ربما رد فعل أم فاطمة جعلها بالفعل تشعر أنها كبرت، وعليها أن تتصرف بطريقة أخرى.

في المساء، جاءت أم فاطمة حاملة معها قميص نوم فصلته من القماش الأصفر ببطاته الحمراء.

ـ "أنا بالبس بيجامات في النوم، عمري ما لبست قميص نوم"

ضحكت أم فاطمة، ووضعت القميص على جسمها.

ـ "لأ بكرة العيد، لازم تلبسي حاجة واسعة"

مرة ثانية تشير إلى العيد، وتحدده أنه غدًا!

لم تنم ليلتها، شعرت أن شيئًا ما سيحدث في الغد. لم تكن قادرة على التكهن به، لكن على الأقل تعرف أنه شيء لا يدعو إلى الارتياح. حاولت أن تُطمئن نفسها، لم تستطع.

استيقظت في الصباح ويد أم فاطمة الحانية تربت عليها وتدعك كتفيها، وتشد ذراعيها إلى أسفل.

ـ "يلا ياجميل نستحمَّى ونلبس جلابية العيد"

كرهت سيرة هذا العيد الغامض، ولكنها لم ترد، ذهبت ذاعنة، وأخذت حمامها، ولبست قميص النوم، شعرت بأشواك توخزها في جسدها كله وكأن هذا البط السخيف على القميص الأكثر سخفًا قد بدأ يعضعضها بمنقاره.

رن جرس الباب، هبت أم فاطمة كما لو كان زوجها قد ناداها فجأة، وأصدرت تعليماتها بلهجة آمرة، ما كان لها أن تتحدث بها في الأحوال العادية، لكن على ما بدا أن هذا "العيد المراوغ" أعطاها سلطة ما توظفها على أمثل وجه.

ـ "استني في الأوضة لغاية ماجيلك"

غابت أم فاطمة عدة دقائق، مرَّت عليها كيوم مدرسي ثقيل، لا تسمع فيه صوت جرس "المرواح"

وأخيرا جاءت أمها بابتسامه غامضة، حضنتها، وطلبت منها أن تكون كبيرة وشجاعة وتسمع كلام "أم فاطمة"

كانت دائما تذهب إلى حجرة الموسيقى في المدرسة، وتمسك بعصا الإكسليفون، وتمر بها على جميع أصابع الآلة، من أقصى اليسار حتى أقصى اليمين، فتصدر صوتًا يبدأ غليظًا قاسيًا ثم يلين تدريجيًا وتزداد حدته حتى يستسلم في النهاية ويذوي تماما. هكذا سارت قاطعة المسافة بين حجرتها والصالة، تتسارع دقات قلبها بعنف، شعرت أنها ترتج معه. بإباءٍ شديد عقدت يديها على

صدرها، وضغطت على قلبها تمنعه من الفرار من بين ضلوعها، وتستعد لملاقاة "العيد الكريه"

رجلان.

رجلان، بدينان، كريهان.

جلس الأول وعلى يمينه حقيبة بنية كالحة اللون بها عدة أشياء لم تلمح منها سوى شفرة فضية لامعة، أخذها ومسح طرفها بقطنة مبللة بالكحول كما بينت الرائحة النفاذة.

نظر إليها الرجل البدين الكريه الثاني الذي كان يجلس على كرسي في مواجهة الأول، قام عندما رآها وأخذها من يدها بعنف، ثم رفع جلبابها الأصفر ببطاته الحمراء الغبية، وأجلسها على فخذيه. حاولت أن تقاوم. شعرت بدوار فظيع غير مصدقة ما يحدث لها. لا. لابد أن هناك خطأ ما. لابد أن هذا يحدث لإنسانة أخرى. تصوَّرت أن هذا الكابوس قد دخل عن طريق الخطأ إلى بيتهم وسرعان ما ستنتبه أمها، أو ربما تفيق هي وتكتشف أن الأمر كان محض خيال مخيف. نظرت حولها، وجدت أم فاطمة تبتسم. ما من كابوس إذن أو أي بارقة نجاة. أين اختفت أمها؟

لف الرجل، الذي أجلسها على فخذيه، يده اليمنى من أسفل

فخذها الأيمن ويده اليسرى من أسفل الفخذ الأيسر، ورفع فخذيها ناحية صدرها ثم شدها بقوة إلى صدره، وأم فاطمة ترقب الموقف، لاتزال مبتسمة، وإن تقلصت الابتسامة مع اقتراب الحدث الجلل.

اقترب الرجل الآخر منها، قام بشق "الكيلوت" بالمشرط الذي مسحه من برهة بقطعة القطن،

ثم قام بقطع شيء آخر. هذه المرة لم يكن قطعة قماش، كان قطعة من لحمها.

جزّت على أسنانها حتى خيل لها أنها ستتحطم داخل فكيها. أنّت أنينًا مكتومًا من شدة الألم، ولكنها لم تبكِ.

لا تدري الآن لماذا كتمت بكاءها المشروع والمبرر؟! لماذا خذلتها أمها ولم تنقذها؟ لماذا كانت "أم فاطمة" التي تحبها كثيرا تقف مبتسمة؟! والسؤال الأكثر إلحاحا وقتها، لماذا أجلسها الرجل على فخذه بعد أن خبأ داخل بنطلونه عصا يابسة قصيرة كان يضغط بها بشدة على نصفها السفلي العاري؟

كرهت اللون الأصفر، واللون الأحمر، وسيرة الأعياد، وزوجة البواب، وكرهت أمها.

قص ولزق

"رُزّة" هي الابنة الوسطى لعم صابر، بواب عمارتنا. اسمها الحقيقي نجاة، ولكن يناديها الجميع لسبب لا أعرفه ـ بـ"رُزّة"

يأتي ترتيبها بعد توحة الكبرى وقبل رأفت الصغير أو أوفة، كما أحب أن أناديه. ماتت "أم توحة"، فارتدت توحة جلابيتها "السمرا" وطرحتها "السمرا"، وبدأت في مساعدة سكان العمارة، بما فيهم أمي في أعمال التنظيف، بينما تولت رُزّة شراء الطلبات من الخارج ومسح السلم. أما عم صابر فقد التزم الدكة الخشب التي يضعها خارج غرفته ويفرش عليها سجادة جميلة مخططة بالعرض بكل الألوان، الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر والبيج والبنفسجي

وبعض ألوان أخرى لا أعرفها، ويسميها "سجادة شراميط"، وتفرغ تمامًا لحمل رافت أو "أوفة" الصبي الذي أتى بعد بنتين لرجل صعيدي تجاوز الستين من عمره وماتت زوجته.

أحبت أمي رُزّة ونفرت من توحة لطول لسانها ونقلها أخبار سكان العمارة من شقة لأخرى. كانت أمي تصد توحة عندما تبدأ في الحديث عن جارنا الذي يسكن في الشقة المجاورة، وكيف يتولى تقسيم قطع الكبدة على أفراد عائلته وقت الغداء، ولا يعطيها منها، ويغلق "نملية" المطبخ بالمفتاح على الشاي والسكر عندما يذهب إلى العمل. كانت أمي تغضب، بعد أن تستمع للحكاية كاملة، وتنهرها عن استكمال الجملة الأخيرة فقط من الحكاية، بعد أن تكون قد قصتها كلها ولم يبق سوى بعض التفاصيل غير الضرورية. لكنها أحبت رُزّة، وعاملتها كابنة لها. كانت دائما تقول: "رُزة دي زي اللي أسلموا بالليل"، ولم أعرف أبدًا مَنْ هؤلاء الذين أسلموا ليلاً، أو لماذا أسلموا ليلاً، وما الذي حدث لهم نتيجة هذا القرار الذي بدا من طريقة حديث أمي أنه لم يكن صائبًا على الإطلاق.

نهت أمي الجميع عن مناداة رُزة بهذا الاسم، بل أكدت عليها أن اسمها الحقيقي نجاة، وأوعزت لها بألا ترد على أحد حتى لو كان والدها أو توحة، إذا ناداها باسم آخر غير اسمها الحقيقي.

كانت نجاة جميلة، عسلية العينين، خمرية البشرة، فرعونية الملامح. تتخيل أنها تضحك حتى لو كانت صامتة، وعندما تضحك

فعلاً تظهر غمازتان على جانبي وجهها تقسمان وجنتيها بالطول. كانت تكبر أخي أيمن بعامين فقط. ولما بلغ أيمن عامه السادس، وجاء وقت التحاقه بالمدرسة الابتدائية بدأت أمي معركة عنيفة مع عم صابر حتى تقنعه بذهاب البنت للمدرسة مع أيمن، أخي. رفض عم صابر في بادئ الأمر إلحاق ابنته بالمدرسة، ولكن أمام إصرار أمي وإغرائها بأنها ستتحمل كافة مصاريف المدرسة، وبعد ترتيب "قعدة رجالة" من سكان العمارة، وافق عم صابر على مضض، وأذعن لرغبة أمي في إلحاق نجاة بالمدرسة.

فرحت أمي بانتصارها في معركتها، وكانت تتباهى أمام سكان العمارة بأنها السبب في تعليم نجاة، وكانت تحكي للجيران أحاديث طويلة دارت بينها وبين عم صابر لإقناعه، مستخدمة الكثير من الخيال والقليل من الحقيقة، التي كنت اسمعها أثناء أحاديثها المقتضبة مع عم صابر.

انكبَّت أمي على تفصيل المرايل المصنوعة من قماش تيل نادية لنجاة قبل العام الدراسي الجديد. كانت تأخذها مع أيمن أخي لشراء الأحذية الجلد السوداء، وشنطة المدرسة البنية الصغيرة. وفي أول يوم بعد عودتهما من المدرسة ترسل توحة لشراء الكراسات والجلاّد البنّي الجميل، قبل أن يظهر الجلاّد الملوّن الذي يشبه

الجراب الذي ندخل فيه الكراسة بلا أي مجهود أو قص أو لصق، وشاع استخدامه بعد عدة سنوات عندما التحقت أنا بالمدرسة. كانت أمي تلصق "التكت"، وتكتب عليه اسميهما بخط جميل: "أيمن سيد رمضان" على كراسات أخي، و"نجاة صابر جاد" على كراسات نجاة.

استمرت الأمور هكذا حتى انتهت المرحلة الابتدائية، وكان على أيمن أن يلتحق بمدرسة "بنبا قادن" الإعدادية بنين، ونجاة، بمدرسة "الحلمية" الإعدادية بنات. أصر أيمن في اليوم الأول من المدرسة أن ينتظر نجاة حتى يوصلها أولا لمدرستها ثم يتوجه لمدرسته. غضبت أمي وحاولت إقناع أيمن أن يذهب لمدرسته أولا، وألا ينتظر نجاة حتى لا يتأخر في يومه الأول ولا يجد مكانا في الصفوف الأولى من الفصل. رفض "أيمن" وأصر على انتظار نجاة لتوصيلها لمدرستها.

عاد أيمن، أخي، من المدرسة متأخرا، ولما سألته أمي عن السبب قال لها ببساطة إنه مر أولا على مدرسة نجاة حتى يرافقها في طريق عودتها ولا يضايقها أحد. صمتت أمي، وصمت أيمن، أخي، وفجأة قال: "ماما. أنا هاتجوز نجاة لما اكبر"

دخلت أمي المطبخ، وأعدت الغداء كالعادة، ولكنها كانت صامتة طوال الوقت. وفي المساء دق باب الشقة، فتحت أمي الباب، وأضاءت نور السلم.

وجدت توحة واقفة وفي يدها الشنطة البلاستيكية الكبيرة التي تحضر فيها طلبات المساء للسكان من عيش فينو وزبادي وجبن رومي، وجميع الجيران واقفين أمام أبواب شققهم المفتوحة لإعطاء توحة قائمة الطلبات والنقود، وخلف توحة وقفت نجاة جميلة نظيفة لامعة، ومعها أفرخ الجلاد البنية، والتكت الأبيض والكراسات. جاءت كي تقوم أمي بتجليدها كالعادة، ولصق التكت وكتابة الاسم عليها بخطها الجميل.

نظرت أمي بغيظ ناحية نجاة، شدت أفرخ الجلاد البنية بعنف من يدها، وقالت بصوت عال سمعه جميع سكان العمارة:

"سيبي اللي في إيديك يا "رزة"، ويالا هاتي الجردل والخيشة وامسحي السلم اللي بقى زيّ الزفت"

فتحت نجاة فمها فيما يشبه الابتسامة، لكنني لأول مرة لم أرَ غمازتيها.

البيت الأوَّلاني

ـ "روحي بيت القلعة وخدي كتبك من هناك قبل ما نسلم الشقة لصاحب البيت."

هكذا طلبت مني أمي.

لم أدخل بيتنا القديم منذ أعوام طويلة، سكنته وغادرت، وسكنني ولم يغادر.

وضعت المفتاح في القفل الحديدي الصدئ، أصدر أصواتًا عالية غير مرحبة غطت على صوت قلبي، تجاهلتها، وأدرت المفتاح. دفعت الباب الذي خلته يوما ثقيلا، فانفتح بكل سهولة، وأفسح الطريق أمامي دون مقاومة. هل وهن الباب، أم قويت قبضتي؟!

الكنبة البلدي التي كان يجلس عليها الشيخ طه المقرئ كل يوم جمعة لا تزال قابعة على يمين الصالة الفسيحة، عارية من غير الشلتة القطن، ومساند الظهر، وقماشها المشجر بوروده الخضراء وسط أرضية من اللون البيج. الشباك الواسع الذي كان دومًا مفتوحا على مطبخ نينة أم أحمد جارتنا زوجة عمي مرسي تفسخت أخشابه.

عمي مرسي كان رجلاً طاعنًا في السن. كنت أظنه وقتها أكبر رجل رأيته في حياتي. لم أره إلاّ بجلباب أزرق فضفاض ومفتوح من الأمام حتى الوسط. شعر رأسه لون الغبار الذي أصبح يكسو كل الأثاث في شقته بعد وفاة نينة أم أحمد وكل شيء في بيتنا الآن. كان شعر صدره يظهر من فتحة الجلباب، ويبدأ في جذبه، وهو يبتسم، قبل أن يضع يديه في جيبيه المفتوحين عندما تجيء الخادمة لمسح الأرض وتنظيف الشقة. غضبت أمي من عمي مرسي عندما دخلت عليه فجأة ووجدت الخادمة تجلس على حجره بعد وفاة نينة أم أحمد. غضبت واحتدت قائلة: "الخدامة ياسي مرسي!"

عادت عابسة وأغلقت الشباك بين الشقتين. لا يزال الشباك مغلقًا بدون ستائر.

فتحتُ حجرات البيت واحدة تلو الأخرى، وجدت شنطة الكتب التي أتيت من أجلها. حقيبة جلدية كانت حمراء في يوم من الأيام. هل يتحول الأحمر إلى بني بمرور الوقت، أم وهنت ذاكرة الألوان عندي؟

أخرجتُ بعض الكتب وتصفحت العناوين: "عطيل" و"ماكبث" و"تاجر البندقية" لـ"شكسبير"، "الأرض الخراب" لـ"تي إس إليوت"، وأيضًا "الناس في بلادي" لصلاح عبد الصبور. وجدت صفحة مطوية داخل الديوان الأخير، فتحتها وقرأت: "الناس في بلادي جارحون كالصقور" لماذا وضعت خطًا تحت هذا البيت دون غيره؟ لم تسعفني الذاكرة. أغلقت "سوستة" الشنطة التي كانت يومًا حمراء، ورحتُ أبحث عن مياه لأغسل يدي من غبار الكتب والذكريات والزمن.

دخلت الطرقة الطويلة التي تضم دورة مياه صغيرة ومطبخًا وحمامًا كنت أحسبه كبيرًا واسعًا. ذهبت إليه مباشرة. فتحت الصنبور النحاسي، صدرت أصوات مخاض أليم قبل أن يبدأ الصنبور في لفظ سوائله. جاءت سوداء قاتمة في البداية، ثم ما لبثت أن افتحَّ لونها حتى انسابت المياه "صفراء" بغير سوء.

تلفتُّ حولي في الحمام، كان دهانه أخضر ذات يوم. استحال إلى لون آخر لا أعرف له اسمًا. تشققت الجدران حتى بدأ الضوء

ينفذ من خلالها. وجدت الكرسي الخشبي الصغير الذي كنا نجلس ونستحم عليه بسبب انقطاع المياه الدائم عن الدش. أغمضت عينيّ وخلعت ملابسي وعلقتها على مسمار في الحائط ـ ربما كانت أمي قد دقته لهذا الغرض خصيصًا ـ وجلست على الكرسي الخشبي بعد أن وضعته تحت الصنبور لأغسله أولاً قبل أن أستحم.

حملت الكرسي وبدأت أنظر في الحمام حتى تبينت نفس البقعة التي كانت أمي تضعه فيها، قريبًا من الصنبور، وبعيدًا عن موقد الكيروسين الذي يغلي فوقه ماء الاستحمام. وضعت الكرسي وجلست فوقه، ضممت ركبتيَّ على صدري، وخبأت ثديي بينهما وأغلقت عينيَّ كما كنت أفعل.

ـ "ادعكي جسمك بالليفة بسرعة من غير ما تبصي ولا تضغطي جامد."

ضحكت بصوت عال من وضعي، فردت ركبتي، وفردت ظهري في تحدٍّ لأوامر أمي، وبدأت أرش الماء على جسمي وأنا أمعن النظر فيه.

تسارعت أنفاسي، ثم حبستها.

وجدت لأول مرة شعرة بيضاء وحيدة على أعضائي الحميمة.

لم أكن أعرف أن شعر العانة ـ أيضا ـ يشيب!

نزعت ملابسي عن المسمار وارتديتها على جسمي المبلل وخرجت من الحمام.

سحبت شنطة الكتب ـ التي كانت يوما حمراء ـ وخرجت مسرعة من البيت.

رابعة تاني

اقتربت "أبلة إصلاح" مني وقالت:

"أنا نقلتك "رابعة أول" علشان خاطر أختك، كانت أشطر بنت عندي مش خيبة زيّك. لو ما شدتيش حيلك معايا هارجعك "رابعة تاني" زي ما كنتي"

أردت أن أبكي، أن أجري، أن أدخل الحمام. زاد ارتباكي مع التفات التلاميذ إلى الخلف حيث التختة الأخيرة التي أجلستني عليها أبلة إصلاح.

استدارت ومضت إلى السبورة السوداء التي بدت أصغر بكثير من سبورتنا في رابعة تاني، حيث كنت أجلس في الصف الأمامي.

كانت ترتدي "بالطو" قصيرًا كي تحافظ على نظافة ملابسها، بعكس أبلة نعمات البدينة ـ مدرستنا في رابعة تاني ـ التي تمسك بالساندوتش بنفس اليد التي كانت تمسك بها الطباشير، وتأكل وهي تشرح لنا الدرس. وضعت "أبلة" إصلاح يدها اليسرى في جيب البالطو، وأمسكت باليد اليمنى أصابع الطباشير الأبيض، وكتبت على الجانب الأيمن من السبورة التاريخ الهجري، وعلى الجانب الأيسر التاريخ الميلادي، وفي المنتصف كلمة "قراءة"، ثم آية "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"

التفتت نحو الفصل وسألت: "مين حافظ وهايسمع؟" تبارى التلاميذ في رفع أيديهم، تركتهم جميعًا وأشارت لي بأن أبدأ في تسميع النص.

حتى الأمس فقط كنت في رابعة تاني "أَلفة الفصل"، أشطر من كل التلاميذ، لكن أختي الكبرى خجلت أن أكون في "رابعة تاني"؛ فذهبت لأبلة إصلاح ورجتها أن تنقلني إلى رابعة أول. لم تطلب منا أبلة نعمات حفظ هذه الآية، وقفت وقد بدأت الدموع تخنقني، تمتمت بعبارة غير واضحة لم تسمعها أبلة إصلاح، أو أنا نفسي. بدأت الدموع تسيل على خدي الساخن، فشعرت باحتراق شديد، زادت دموعي حتى بدأت تنهمر من أنفي. تطلّع جميع التلاميذ الى الخلف حيث أقف، وقد زاد تنطيطهم والتلويح بأيديهم والكل لا يذكر سوى جملة واحدة "أنا يا أبلة. أنا يا أبلة".

عقدت ذراعيَّ على صدري وحاولت أن أتذكر الآية فلم أستطع. زعقت فيَّ أبلة إصلاح وتركتني واقفة وسط الفصل والتفتت إلى التلاميذ الذين يتبارون للإجابة.

عدت للبيت باكية وأول ما وقعت عيناي على أختى الكبرى قلت لها:

"بُكره هارجع "رابعة تاني" ولو مش عاجبك ما تقوليش لحد ان أنا أختك"

شوكة ومعلقة

ـ "يا هدى يا هدى. كل سنة وانتي فلة كده"

ـ "اسمي ندى!"

وتصر أمي على غناء هذه الأغنية لي ليلة شم النسيم من كل عام.

حمّام دافئ، لا يحلو إلا في الحادية عشرة مساءً، بخارٌ يتكاثف في الحمام الفسيح ذي السقف العالي فيصنع خلفيةً غائمةً على الجدران وعلى سطح النافذة. أسارع برسم لوحات على كانافاه

مائي وأنا عارية: ورود لم تتفتح بعد، ومفتاح صول الموسيقي، قبل أن يتكثف البخار من جديد، فتتلاشى لوحاتي، وتتساقط قطراتٍ نديةً تملأ ورياني وتلالي وأخاديدي. تظل أمي والخادمة تعملان حتى هذه الساعة المتأخرة، تمارسان طقوسًا مقدسة لا تخلف موعدها وإن اختلف ترتيبها في بعض الأحيان: غسل الستائر، وجلي عتب أرضيات الغرف بفرشاة البلاط الخشنة، ونزع بياضات الصالون المدهب، تمهيدًا لاستقبال الضيوف في اليوم التالي.

تظهر أمي بين الحين والآخر، تقف في الصالة وتصدر تعليماتها الصارمة، ثم تختفي في المطبخ لإعداد كيكة البرتقال أو بلح الشام، تشيع في البيت رائحة "الفانيليا" مختلطة برائحة "الرابسو" و"الفنيك"، بينما تجثو الخادمة على الأرض بجلبابها المبلل تنفذ التعليمات بهمة ونشاط. لم تكن خادمة تمامًا، ابنة أحد أعمامي الفقراء، تتوافد على البيت، الواحدة بعد الأخرى. تذهب أمي إلى مدينة السبع سواقي وأذهب معها، تدخل بيت عمي محمود أو عمي رسلان محملةً بالهدايا وخزين البيت والأقمشة، تعطي زجاجة عطر رخيصة لمرات عمي تهاني أو حليمة، ونعود بإحدى البنات. أحيانا كانت ابنة عمي لا تتجاوز العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها، وأحيانا قليلة كانت في الخامسة عشرة، تظل عندنا حتى يأتيها "العَدَل" فتتكفل أمي بشوارها.

في المرة الأخيرة، بعد وفاة أبي بشهور قليلة، ذهبنا أنا وأمي إلى بيت عمي محمود، أجزلت أمي العطاء هذه المرة خشية أن يمتنع الأعمام عن إرسال بناتهم معها بعد وفاة أبي، ولكن لم يحدث، وفعلت الهدايا والنقود وكلام أمي المعسول ودموعها المالحة على فقدان أخيهم الكبير وعماد العيلة مفعولها، وعلى العكس من كل مرة أرسل معنا عمي محمود سنية ابنته الكبرى كي تتعلم من أمي الطهي وترتيب المنزل، وزاد العطاء بـ"سيادة"، الصغرى كي تلعب معي. طفلة نحيلة ترتدي جلبابًا أسود كالحًا وشبشبًا بلاستيكيا بصباع، تتحدث بلهجة غريبة مضحكة، في الثامنة من عمرها، تكبرني بثلاث سنوات فقط، وإن بدت في نفس عمري تقريبًا، نظرًا لضمور جسدها من سوء التغذية.

كانت سيادة مستديرة الوجه، ضيقة العينين، مكتنزة الشفاه، بالرغم من نحولها، يملأ وجهها الأبيض نمش بني يتحول إلى اللون الأحمر عندما تضحك معي أثناء لعبنا، أو تبكي لتعنيف أمي لها. شاركتني سيادة ملابسي القديمة، ولعبي القديمة، وحكاياتي القديمة والجديدة. تنشغل أمي بشئون المنزل، وينشغل إخوتي الكبار، كل بشأنه، ولا يتبقى لي سوى سيادة.

تفانت أمي في تربيتي "على مزاجها"، بخلاف إخوتي جميعًا الذين شاركها في تربيتهم أبي بجذوره الريفية، ونينة زُهرة، أم

أبي، بسطوتها وتسلطها. ولما مات أبي استعادت أمي حيويتها وشبابها وطريقة حياتها القديمة في بيت أسرتها الراقية، وكنت أنا، ندى، أملها الوحيد في استدعاء حياة اختطفت منها وهي بعد في السادسة عشرة من عمرها؛ تأمرني وأطيع، أتحدث بصوت خفيض، أرتدي ملابس الخروج طوال الوقت في البيت، ويقتصر ارتداء البيجاما على وقت النوم فقط، أدعك أسناني بفرشاة وردية اللون قبل النوم وبعد الاستيقاظ، أضم ساقيَّ عند الجلوس، أرطب تحت الإبطين بمسحوق الشبّة والمستكة، وأغسل غياراتي الداخلية بماء الورد، والأهم من ذلك، أتناول الأرز بالشوكة وليس بالملعقة كسائر إخوتي وزملائي في المدرسة، مثلما كانت تفعل أمي في بيت عائلتها قبل أن تضطر لاستعمال الملعقة لتناول الأرز بعد تندر أبي وأمه عليها. أنفذ تعليمات أمي بالحرف الواحد في العلن، وأُلقّن سيادة ما تعلمته في الخفاء.

بعد عشر سنوات جاء "العَدَل" لسيادة، بكيت عندما جاء أبوها ليأخذها، وبكت كثيرا. تركت منزلنا بفستان أنيق وحذاء لامع وحقيبة يد بها أصبع روج وأحمر خدود ولهجة قاهرية وخصال أولاد الأكابر.

مات أحد أعمامي بعد ذلك اليوم بعدة أعوام. ذهبت أنا وأمي لتقديم واجب العزاء، قابلتني سيادة بجلباب وطرحة سوداء، تحمل

على ساعدها طفلاً عاري المؤخرة مبتل الأنف، جريت نحوها كي أحتضنها، مدت يدها بتردد، وقالت لي بلهجة ريفية كانت قد نسيتها عندنا: "ست ندى. جوزي طلقني لما شافني باكل الرز بالشوكة"

طقم الفضية

ـ : "سي سيد مات. إنّا لله وإنّا إليه راجعون!"

كانت هذه هي الكلمات التي استيقظتْ عليها وهي في الرابعة من عمرها.

فركت عينيها الواسعتين، تبددت ظلمة الحجرة قليلاً، وبدأت تتبيَّن ما حولها بالتدريج.

شعرتْ بحركة في صالة البيت الفسيحة، وسمعت أصواتًا تعرفت علي بعضها. كانت لجيرانهم في الشقة المجاورة، كما سمعت صوتًا تحبه وتألفه كثيرًا، صوت "أم فاطمة" زوجة البواب،

وأصواتًا أخرى لم تميزها. شعرت بخوف لم تدرك سببه، ولكن أخيرًا جاء صوت أمها من الخارج ليطمئنها، إلا أنها كانت تردد بعصبية: "فيه كام كرسي وكام طبق؟ ارفعوا السجاد الصوف."

خرجت دون أن ترتدي شبشب البيت الذي دائمًا ما تلقى تعنيفًا شديدًا من أمها لعدم ارتدائه؛ لطالما تلذذت بملمس الأرض الرطبة تحت قدميها الصغيرتين، وخاصة بعد أن تقوم "أم فاطمة" بمسح البلاط. فكرت أن الصخب الموجود في الخارج سيجعلها تفلت من التوبيخ إذا لاحظت أمها أنها حافية.

كانت الأم منحنية أمام درج البوفيه البني الكبير، رأت وجهها في المرآة الموجودة أعلى الأدراج، بدت ملامحها غريبة عليها بعض الشيء. بدأت في الاقتراب من أمها لكن في هذه اللحظة توافد عدد آخر من الجارات على المنزل، وجميعهن يرتدين ملابس سوداء، فتسمرت في مكانها، وظلت ترقب صورة أمها في مرآة البوفيه.

ـ "طقم الفضية ناقص. ماقدرش أقدم الأكل وكل معلقة شكل" كانت أمها تردد وهي غائبة تمامًا دون أن توجه كلامها لأحد بعينه.

بدأ الجيران جميعهم مراسم تعرية البيت، وكأن هناك اتفاقًا

مسبقًا جاءوا لتنفيذه، أو مهمة محددة دُعوا لها وما من قوة يمكن أن تردهم. رفعوا ترابيزة السفرة ووضعوها في وضع رأسي بجوار الحائط.

ـ "بلاش تدخلوها جُوَّه؛ هانحتاجها في الغُسل" قالت أم فاطمة، وهي تساعد في إزاحة الترابيزة من الطريق.

استحال الجزء الأوسط من الصالة إلى فراغ شاسع، بدا لها أكبر من "حوش" مدرسة أختها، وبدأت النسوة يملأن هذا الفراغ بملابسهن السوداء.

كانت سجادة الصالة ذات أشكال هندسية يتداخل فيها اللونان النبيتي والأزرق الفاتح في احتضان حقيقي. رفع الجيران بقعة اللون المحببة إلى قلبها، وحل سواد ملابسهن محلها.

ـ "طقم الفضية ناقص! رددت الأم بجزع"

فطنت النسوة إلى وجود الأم، فبدأن في الصياح والبكاء بحرقة وهن منهمكات في تنحية الكراسي دون أن يقلل الصراخ من نشاطهن أو يفتر من عزيمتهن على إكمال مهمتهن اللاتي جئن من أجلها.

ظلت لسنوات طويلة تتذكر هذا الجيش النسائي الذي أتى طواعية، وبدأ في إسقاط أوراق التوت عن بيتها، وظلت لسنوات أطول عاجزة عن أن تفهم سبب انزعاج أمها الشديد من عدم اكتمال طقم الفضية في ذلك اليوم.

عوَّامة زكي

"زكي أبو دراع" هكذا يناديه الجميع، لأن اسمه زكي، ولأنه بذراع واحدة، دائما يتبعون الاسم بالنعت. لا يتحرجون، ولا يغضب.

أقام زكي أبو دراع كشكًا خشبيًّا على باب حارتنا الجميلة ـ درب الميضة ـ المتفرعة من شارع شيخون، الأجمل في منطقة القلعة، حارةٌ عجوز، ولكن بصحة جيدة. أرض الحارة مرصوفة بأحجار الزلط الكبيرة اللامعة مهما اتسخت وتغير لونها لا تحتاج إلاَّ لرشات سخية من خرطوم المياه المثقوب، يمسك به زكي أبو دراع فيعيد لها رونقها وتألقها.

كان زكي أبو دراع يبيع السجائر والمعسل والنشوق في كشكه الخشبي في بادئ الأمر، ثم قرر أن يبدأ نشاطًا آخر لتسلية أولاد وبنات حارتنا. جاء بعم محمود النجار، وبدأ في تصنيع ألواح التزلج التي تشبه لعبة "الاسكوتر"، وسمى المشروع "عوامة زكي" عجلتان من المعدن يرتكز عليهما لوح خشبي يقف عليه عمود على هيئة صليب، يمسك الأولاد بطرفي العمود ويضعون القدم اليمنى على العوامة واليسرى على الأرض، وعندما تندفع العوامة يرفع الأولاد القدم اليسرى من على الأرض، وينطلقون. أما بالنسبة لطريق التزلج فلم يكن مشكلة بالمرة، فقد حبَت التضاريس الطبيعية زكي أبو دراع بمضمار ما كان يحلم به أبدًا ولو قضى أعوامًا طويلة في تمهيده. ترتفع الأرض أمام قسم الخليفة حيث نقطة البداية، ثم تأخذ في الانحدار تدريجيًا حتى الكشك الخشبي، نقطة النهاية أمام حارة درب الميضة، وبذلك توفر منحدرًا مثاليًا للتزحلق.

انتقلنا من "فيلا أم شكري" التى كنا نستأجرها في الحلمية الجديدة إلى شقتنا في منطقة القلعة؛ أصيب أبي بفشل كلوي أقعده عن العمل وأصبح لا يتقاضى سوى الراتب الأساسي، وخسر "الأوفر تايم" والحوافز التي توفر لنا مصاريف إعاشتنا الأساسية ودفع إيجار الفيلا. ولما زادت تكاليف الغسيل الكلوي الأسبوعي، كان لابد من

بيع "الفدانين الحيلة بتوع أبوكم"، كما كانت تتندر عليه وعليهما أمي. وتركنا أم شكري وفيلتها وجئنا إلى درب الميضة وأنا في العاشرة من عمري.

حذرتنا أمي من الاختلاط بأولاد الجيران واللعب في الحارة. كانت ترى ـ لسبب لا أفهمه ـ أننا مختلفون، وأنها مختلفة. نقمت على أبي الذي كان يكبرها بثلاثين عامًا؛ اختطفها من حضن أبيها تاجر المانيفاتورة الغني، وجاء بها إلى القاهرة، حاملاً معه ـ بدلا من الحرير والمخمل ـ أمه العجوز وأخته العانس ومرضه وصلعته أيضا، ثم تركها أرملة في عز الشباب بأولاد أربعة في منطقة شعبية لا تناسبها ورحل. كانت ترى أنها جديرة ربما بعمّي وليس أبي، عمي الشاب الوسيم تاجر قطع غيار السيارات الذي تركنا عندما تركنا فيلا أم شكري، وذهب بزوجته ليعيش معها في منطقة المماليك، وانتقلنا نحن إلى القلعة.

كنت أمر على "كشك" زكي أبو دراع في طريقي إلى المدرسة كل يوم، أرى طابورًا طويلاً من العوامات الخشبية في انتظار الأولاد والبنات في الصباح، وطابورًا أطول من الأولاد والبنات في انتظار دورهم أمام عوامة زكي أثناء العودة، حلمت كثيرًا باحتضان واحدة، ولم أجرؤ على البوح لأمي.

انتهى العام الدراسي، وبدأت الإجازة الصيفية، ولم تستطع أمي ماديًّا الاستمرار في إعطائي دروس البيانو التى بدأتُها عندما كنا نقيم في فيلا أم شكري؛ فما كان منها إلا أن طلبت من عمي شراء جيتار لي، وألحقتنى بمعهد "دانتى أليجيري"، خلف مستشفى الجلاء للولادة، لتعلم الجيتار على أيدي المايسترو "كاروزو" الإيطالي. رسوم المعهد لم تكن باهظة كما كان الحال بالنسبة لدروس البيانو الخاصة.

كنت أراقب الأولاد والبنات وأنا في طريقي كل يوم إلى المعهد، أراهم وهم يمرحون على العوامات الخشبية، أرى فرحتهم وأسمع ضحكاتهم، يقبضون على مقود العوامة، وأنا قابضة على جيتاري بأصابعي التى أدمتها كثرة التمارين. أركب الأتوبيس وأذهب حيث تغيب الضحكات ويسود صمت لا يقطعه سوى نغمات أصابعي الدامية، وأوراق النوتة الموسيقية التى يقلبها المايسترو "كاروزو" أستمر في العزف حتى تدمى أصابعي، فتأتي "فاطيما" زوجته الحنون، تثني على عزفي، وتقدم لي كوبًا من الليمون المثلج.

أثناء عودتي من درس الموسيقى الأخير، قبل بداية العام الدراسي الجديد، كنت أشعر بفرحة شديدة بعد أن أتقنت عزف مقطوعة "كومبارسيتا" الصعبة، شاهدت صبيًّا صغيرًا على العوامة فرد

ذراعيه الاثنتين، وأغمض عينيه، وترك نفسه كما لو كان كرة شراب تتدحرج على الطريق ولا سبيل لإيقافها مهما كانت المحاولات. كان الولد يرتدي جلبابًا فضفاضًا امتلأ بالهواء مشكلا خلفه بالونًا بديعًا مخططًا باللونين البيج والأزرق. اندفعت الأنغام الصاخبة بداخلي، تردد اللحن الجامح بقوةٍ مزَّقتْ أوتار طاعتي العمياء. رميت الجيتار على الرصيف، وأعطيت المال لـعم زكي وأخذت العوامة الخشبية، ظللت أجري بها صاعدة حيث نقطة البداية أمام قسم الخليفة. وضعت قدمي اليمنى على العارضة الخشبية وفردت ذراعيَّ وأغمضت عينيَّ، أخذت نفسًا عميقًا أدخَل قدرًا من الهواء لم أشعر به من قبل. اندفعت نحو المنحدر كأوركسترا يعزف لحنه الأخير في غياب المايسترو. اندفعت واندفعت واندفعت، فتحت عينيَّ فشاهدت البيوت وفرن العيش وجامع المحمدي ومدرسة الناصر قلاوون تمر بجواري ولا تتوقف. شاهدت كشك زكي أبو دراع، نقطة النهاية المفترضة التي تتوقف عندها جميع العوامات، إلا عوامتي.

أفقت ـ لا أعرف بعد كم ساعة ـ لأجد أمي واقفة بجوارى في المستشفى تصرخ في وجه عمِّي لأن قرار أخيه المرحوم كان السبب في انتقالنا إلى مكان لا تنتمي إليه، وفي كسر البنت.

النمل الفارسي

صباح الجمعة هو الموعد الأسبوعي لزيارة "القرافة"

مدافن الأسرة في مكان بعيد: حار رطب صيفًا، خانق كئيب شتاءً. وتصر أمها على اصطحابها معها كل أسبوع فلا تستطيع الرفض.

تذهب كل جمعة وتعود، أو تتمنى العودة، وألا تصبح مثل من يذهب ولا يعود. مات أبوها وهي في الرابعة، ولاتزال الأم بعد مضي عامين على الوفاة تشد الرحال كل يوم جمعة إلى القرافة الكائنة في منطقة البساتين، بعد أن تتزود بالعدة والعتاد، الجبن الأبيض الأسطمبولي الفاخر الذي تحرص على أن يأتيها به أخوها

من الفيوم، الزيتون الأسود الذي تجتهد في تخليله بعد رشه بالملح ولفه في الخيش ووضعه في البلكونة عدة أيام إلى أن ينضج ويفقد عصارته ويصبح جلده "مكشكشا" تمامًا مثل تجاعيد وجه جدتها، لكنه طيب المذاق وليس لاذعا كلسانها، الخيار الطازج والبلح الناشف، والأهم من ذلك كله "الشُّريك" الشهي و"القُرَص" المستديرة التي تشبه وجه القمر عند اكتماله، وأحيانا تأتي على شكل "أهلّة" ترى ضوءها عندما تدهن على سطحها الجبن الأبيض الشهي.

إذن هي الرحلة الأسبوعية.

دائما ما تعصف بها مشاعر متضاربة إزاء هذا الترحال الرتيب.

حالة استنفار قصوى في البيت مساء يوم الخميس. استعدادت بترامس الشاي والأسبته التي ستملأ عن آخرها بالطعام ثم تُغطَّى بملاءات جديدة نظيفة تم شراؤها لهذا الغرض خصيصًا، ثم الحمّام الدافئ الذي تعده لها أمها، والتعنيف الأسبوعي لأن أمها تريد أن تجدل شعرها الطويل في ضفيرة واحدة خلف ظهرها، وهي تكره ذلك.

تأخذ ضفيرتها الطويلة وتضعها على صدرها. كيف تفننت الأم في سجن شعرها الطويل على هذا النحو؟ فروة رأسها تؤلمها من

شدة إحكام الضفيرة، وكان أمها تخشى أن يفر شعرها أو يخرج عن هذا الحيز الأفعواني.

ثم يأتي الصباح ويبدأ المدعوون وأصحاب البيت في الانتقال لموقع الحفل.

قرافة فسيحة، مكونة من حجرتين وصالة وحمام بلدي صغير، حجرة للرجال وأخرى للنساء، بينهما حوش بلا سقف به مصطبة عالية، عرفت فيما بعد أن والدها مدفون أسفلها.

ما إن يحط الركب رحاله، حتى تبدأ النسوة في إعداد وليمة الجبن والزيتون والخيار الطازج والشُريك للرجال، وإعداد الشاي بعد وضع النعناع الأخضر ذي الرائحة النفاذة التي تشيع في نفسها شعورًا بالطراوة حتى لو كان الجو حارًّا.

دائما ما تشعر بأنها منسية وسط هذا الزحام؛ ما من أحد يلتفت إليها. تحب طعم الشُريك بالجبن الأبيض، ولكنها تحب أن تتناوله في بيتها وليس هنا. تتلذذ بطعمه في فم يحوطه شعرها الحر بلا انتظام.

انسلت من حجرة النساء وخرجت للحوش الفسيح، رفعت رأسها للسماء، رأت ضفائر تتدلى منها مثل ضفيرتها وإن كانت أكثر طولا، ودت لو تمسكها أو تتعلق بها حتى ترى ما إذا كان والدها فوق كما قالت أمها، أم تحت هذه المصطبة كما قالت أيضا أمها!

إصيص من الصبار قبع كالحًا مغبرًّا خارج دورة المياه الصغيرة، أخذت حرف الخرطوم البرتقالي، المثبت في الصنبور الموجود في دورة المياه، وسقت الصبار، وغسلت أشواكه اليابسة.

انهمك الرجال في تناول الطعام غير عابئين بجموع المقرئين من مختلف الأعمار الذين توافدوا من أجل قراءة القرآن، بينما بدأت النساء بعض الأحاديث الجانبية بصوت بدأ خفيضًا، ثم راح يعلو مع إحساسهن بالاستئناس في حجرتهن، حتى غطت أصواتهن تماما على أصوات المقرئين.

انتهت من سقاية الصبار، والتبرم من ضفيرتها، والتشكك في المكان الحقيقي لوالدها. استرعى انتباهها شريط أسود طويل يتحرك أسفل المصطبة العلوية.

خيل لها أن هذا الشريط المتعرج يتحرك حركة واحدة للأمام وإن كانت بطيئة للغاية لا تكاد تُلاحظ بالمرة. اقتربت تدريجيًّا من الشريط الأسود، رأته أكثر وضوحا وأصبحت الحركة حقيقة أمام أعينها: جيش من النمل الفارسي في زيه الأسود وصرامة مشيته ودأبه على بلوغ مقصده مهما كانت العقبات. أنصتت بتركيز شديد محاولة أن تطرد طنين النسوة في الحجرة المجاورة، وفحيح المقرئين على عتبة الباب الخارجي للقرافة، فسمعت صوت أقدامه بحرًا هادرًا انتقل من الأرض وعصف بقلبها الذي تسارعت دقاته مع كل حركة من تحركات هذا الجيش.

توقف طابور النمل الفارسي فجأة، وكأن اقترابها منه قرع طبول الحرب أمامه، وعليه أن يغير مساره وخططه.

بدأ الزحف تجاهها، تسلق أقدامها الصغيرة، والتف على ركبتيها، صعد إلى أعلى جذعها، وصل حتى ضفيرتها، اختبأ في جدائلها التى أبت أمها أن تتركها حرة طليقة، ثم بدأ الهبوط على جمجمتها وفروة رأسها التي تؤلمها من فرط إحكام ضفيرتها. بدأ يسحقها بأقدامه. ومن بعيد، جاءها طنين النسوة ونعيق الرجال وفحيح المقرئين.

جاء أقارب أحد الأطفال المتوفين وطلبوا دفنه في عين الصدقة التي بنوها في مدفنهم.

لم تلحظ أمها دخولها خلسة وراء الطفل الملفوف بملاءة سرير بيضاء.

أغلقوا عليها الحفرة ونسوها.

ظلت تخبط بيديها الصغيرتين لعلهم يسمعونها، ولما لم يسمعها أحد نامت بجوار الطفل الصغير قابضة على قطعة فطير عليها جبن أبيض شهي.

السُّـقّاطة

بكت أمي، وانتحبت، ونهنهت.

ـ "جدك حسن بيموت. عدي عليّ علشان نسافر بسرعة"

جدي حسن شعره أبيض مثل قماش البافتا البيضاء التي يبيعها في محله في مدينة الفيوم، قصير مدبب كأشواك السمك الطازج الذي يحضره لنا من بحيرة قارون، وحواجبه سوداء كالبذور الزيتية التي ينفضها عم صبحي المنجد من القطن بالقوس والعصا.

أذهب مع أمي إلى بيت جدي الكبير في الإجازات الصيفية، نتوجه إلى ميدان الرماية في آخر شارع الهرم ونستأجر سيارة "بيجو"،

نجلس في المقعد الأوسط، وتدفع أمي أجرة ثلاثة أشخاص للسائق بدلاً من شخصين كي لا يزاحمنا غريب يجلس إلى جوارنا.

تشير أمي لعربة حنطور تقف عند موقف سيارات "البيجو" في مدخل مدينة الفيوم، وتشير للعربجي بأن يأخذنا لمحل الحاج حسن تاجر المانيفاتورة عند بحر يوسف. تنطق اسم جدي ومهنته بفخر وبصوت عالٍ وكأنها تريد أن يسمع الجميع وجهتنا.

أُلح على أمي أن تسمح لي بالجلوس بجوار العربجي في المقعد الأمامي المكشوف، فترفض في البداية، وألح مرة ثانية، ويتدخل العربجي بكلمتين لصالحي ولصالحه أيضًا؛ حيث يبدو أمام المارة والعربجية الآخرين متميزًا لنقله لركاب أجانب عن المحافظة الريفية لا يخجلون من الجلوس في المقعد المكشوف.

نصل إلى محل جدي، محل واسع له مدخلان وكلاهما يطل على بحر يوسف، ترعة ضيقة مياهها راكدة مليئة بالقمامة وجثث الحيوانات النافقة عند الجزء المواجه لمحل جدي، ولكنه مصدر فخر لأمي بوصفه موقعًا متميزًا للمحل. نجد جدي حسن جالسًا على يمين المحل وأمامه دائمًا رجل يتبادل معه الحديث ويقدم له شايًا بالنعناع الناشف.

خلف جدي تصطف أرفف كثيرة من الخشب البني وعليها "أتواب" القماش الملونة بألوان زاهية رائعة، وعلى الطاولة المستطيلة التي

يطلقون عليها "البنك" توضع الأمتار الخشبية التي يقيسون بها القماش بعلاماتها الغائرة وأطرافها "المعضعضة"

كان جدي يتفنن في رص الألوان فيضع قماش البافتا البيضاء بجوار البرتقالي، ثم الأخضر الفاتح والوردي واللبني والبيج، وعلى رف آخر يضع القماش الكاروه، فتتراص المربعات الصغيرة الزرقاء بجانب البيضاء والصفراء والحمراء ثم يأتي دور القماش المشجر الفاتح الذي أعشقه، ويبدو أن جدي حسن أيضًا يعشقه فيفرد له جانبًا مستقلاً من المحل. أقف مبهورة أمام هذا الركن المفضل لدي من الأقمشة فيختفي المحل والأرفف والزبائن والتاجر وكوب الشاي بنعناعه الناشف، وأذهب بلا حنطور إلى حديقة فسيحة بزهورها وأشجارها وعصافير ملونة اختبأتْ في أعشاشها وغابت عن أقمشة جدي.

"حبيبة جدو". يهتف جدي عندما يرانا. يترك ضيفه وينهض من مقعده، يستقبلني بقرصة قوية في ذراعي تترك علامة زرقاء تظل لأكثر من أسبوع قبل أن تتحول إلى اللون البنفسجي الداكن ثم يخف اللون تدريجيًا كما يبهت لون القماش من تكرار الغسيل حتى تختفي تمامًا. يقبّل أمي في رأسها، وينادي على أحد العاملين، ويطلب منه أن يحاسب الحنطور، ويجزل له العطاء؛ فقد أتى "بالحبايب من مصر".

تأخذ أمي رشفة واحدة من كوب الشاي الذي يقدم لها على صينية من الألومنيوم "المطفي"، وقبل أن أقترب من زجاجة "الكوكاكولا" يأخذني جدي حسن من يدى ونخرج جميعا متوجهين للبيت الكبير من الباب الخلفي للمحل. يستدير جدي للعامل الذي أحضر صينية المشروبات لنا مُصدرًا تعليماته:

ـ "أكبر شروة سمك موسى من البحيرة علشان الحبايب"

ـ "سمكة موسى دى نص سمكة"

نفس الحكاية للمرة الألف. يقص عليَّ جدي حكاية سمك موسى التي لا يكِلّ من قصها، ولا أملّ من الاستماع إليها.. يقولها بلغة صعبة مختلفة عن كلامه العادي معنا، ولا أفهم بعض كلماتها: "همّ سيدنا موسى بعبور البحر، ضرب الماء الهادر بعصاه فشق البحر وتصادف وجود سمك موسى بأسراب كبيرة في طريق العصا فانشقت السمكة نصفين، لذلك نجد السمكة رقيقة ناعمة صائمة دومًا بلا أحشاء داخلية كسائر الأسماك، إجلالاً لسيدنا موسى"

أخذت أمي منديلاً ورقيًّا من علبة المناديل الموضوعة في السيارة وبدأت تمسح دموعها، نظرت إلى الطريق الزراعي الملتوي وقالت: "الله يجازيك يا ماما زكية والله يسامحك يا بابا، ساب لها هي وولادها الحبل على الغارب، وبقى لا حول له ولا قوة"

ننطلق إلى بيت جدي، يضع المفتاح ويدفع الباب الثقيل.

بيت جدي مكون من ثلاثة طوابق، الأول للضيوف والثاني للمعيشة والثالث للطيور. أول مرة أرى طابقًا كاملاً مخصصًا للطيور. يجلس جدي في الطابق الثاني في الحجرة الكبيرة المطلة على الشارع، والتي تسمح له برؤية باب البيت ومشاهدة من يطرق الباب. أهم ما يميز هذه الحجرة هو الحبل المجدول الطويل الذي يخترق أرضيتها قادمًا من سقف الدور الأول، سألت جدي عنه مرة فقال لي: "دى السُّقّاطة، مربوطة بترباس البيت. أنا بس اللي أشدها."

حاولت مرة أن أمسك بالسُّقاطة وأفتح الباب فغضب جدي مني وعنفني، وظل واضعًا طرف الحبل كالخاتم في إصبعه.

تُعد نينة زكية سمك موسى المقلي بالزبدة والأرز البني والباذنجان المخلل، نأكل وترفع صينية الطعام. تجلس نينة زكية بجانب جدي فينظر إليها بحدة، أحيانًا تغادر، وأحيانًا أخرى تظل جالسة فلا يتحرَّج في أن يقول لها بصوت حاسم: "سبيني شوية مع العيال"

تغادر نينة زكية الحجرة على مضض فيفتح جدي كيسًا من القماش الستان المقلم بالعرض، كان يضعه في صدره، يخرج

بعض النقود ويعطيها لأمي، يقبل رأسها ويدفعها بعيدًا عنه، ينظر إلى الشباك ويقول:

"ياللا الحنطور جاهز علشان ياخدكوا للموقف. ياللا علشان تروَّحوا قبل العتمة". يشد السُّقاطة بقوة فينفتح الباب الكبير.

تركت سيارتي أمام محل جدي، ومررنا من الداخل كي ننفذ من الشارع الخلفي إلى البيت. اختفت أتواب البافتا الفاتحة ووجدت أقمشة "شيفون" و"بوليستر"، اختفى أيضًا المتر الخشبي المعضعض من أطرافه ووجدت مكانه مترا بلاستيكيا للقياس. أما حديقتي الغنّاء فقد ذبلت ورودها وأشجارها وغادرتها العصافير بلا رجعة.

طرقنا الباب فانفتح ببطء دون أن يطل جدي ويسأل عن الطارق. صعدنا إلى الطابق الثاني ودلفنا مباشرة إلى الحجرة الكبرى، رقد جدي حسن، وقد صغر حجمه كثيرًا على السرير الحديدي، وبجواره جلست نينة زكية. مدت يدها وسلمت على أمي بفتور، وفي يدها اليسرى لمحت حبل السُّقاطة يزين سبابتها.

الكراسي الموسيقية

انتهى المقرئ الموجود في قاعة الرجال المجاورة من تلاوة الربع الأخير، وتبعه بقراءة الفاتحة معلنًا فض العزاء. استمعتُ إلى صوته هذه المرة براحة عميقة. سأتخلص أخيرا من صوت الميكرفونات العالي، وأصوات النساء التي تبدأ همسًا بين كل امرأتين متجاورتين، ثم يرتفع الصوت بالتدريج كحركات سيمفونية سريالية يعزفها أوركسترا غاب المايسترو عنه فجاءت أصوات الآلات متنافرة قبيحة وعالية.

منذ صلاة المغرب ازدحم السرادق بالمعزين، يأتون فرادى

وجماعات، يجلسون على المقاعد، ثم يغادرون ويأتي غيرهم. الكراسي الموسيقية كانت لعبتي المفضلة عندما كنت صغيرة، الآن يلعبها الكبار: رجال في حلل أنيقة ونساء متشحات بالسواد.

أنقذني صوت الحاج محمود صاحب محل الفراشة يزعق بصوته الأجش وبجانبه خالتى تجادله:

ـ "الكراسي ناقصين كرسيين يا مدام."

ـ "يعنى كلناهم يا حاج؟ عِدّ كويس."

ـ "عدينا مرتين، نزلنا تلات دست رجعوا 34 كرسي!"

ـ "يا إما عدّيت غلط يا إما جبتهم ناقصين."

أنهض من مقعدي وأقترب من باب الشقة، أزيح خالتي جانبًا رغم تذمرها، وأتحدث مع "الحاج محمود" بصوت منخفض:

ـ "كم تمن الكرسيين يا حاج؟"

ـ "130 جنيه علشان خاطرك. هاحسبهم كُهنة."

ـ "ولا يهمك"

أفتح كيس نقودي وأعطيه مائتي جنيه، ثمن الكرسيين المفقودين وبقشيش للعمال، وأغلق الباب خلفه.

تركت رجاء شقيقتي الكبرى مقعدها وارتدت ملابسها، أحكمت

طرحتها على شعرها الكثيف وثبتتها بعدة دبابيس صغيرة ذات رءوس ملونة. لم تنس أن تسقى أصص الزرع الكثيرة الموجودة في شرفة منزلها في "نزلة السمان"، فهي عاشقة للزرع والخضرة حتى لو كان حزمة جرجير، وعملها كمهندسة زراعية مسئولة عن المزرعة النموذجية لوزارة الزراعة في منطقة "أبو رواش" أجَّج فيها هذا الشغف. كنت أناديها بـ"أبلة رجاء" عندما كنت صغيرة، فهي تكبرني بعشرين عامًا، هي "البكرية" وأنا "آخر العنقود"، ثم أسقطتُ اللقب من جانبي، ولم تعترض هي من جانبها، بعد استطالة قامتي، ولساني.

كنت أفيق من النوم على صوتها مع أمي، تجلس على ترابيزة السفرة المستطيلة تفرد ورق العنب المسلوق لأمي كي تسرع في لفه.

ـ "هي حزمة شبت وحزمة بقدونس وكرفس. تحطي الرز والبصل والطماطم. ما تنسيش وانتي بتلفي تقولي: يا حبا يا نبا. هات الحشو على أد الورق. تخلص الخلطة مع الورق، لا تزيد ولا تقل"

تبتسم رجاء، وتهز رأسها موافقة، وتعطي بعض النصائح المنزلية الزراعية لأمي: "الخضرة تتغسل بالخل"، "بلاش الخوخ يا ماما بيرشوه بمية مصبوغة"، "بلاش الكبدة. دي مخزن لسموم الجسم كلها".

كانت الوحيدة بيننا التي تتحمل الحديث مع أمي لساعات طويلة، خاصة بعد وفاة زوجها. بدت الاثنتان سعيدتين بوفاته، أمي وجدت ونيسًا يجلس في الكرسي المقابل لها، والذي خلا بوفاة والدي، وانفض عنها الأبناء والبنات بالعمل أو السفر أو الزواج، ورجاء بالتحرر من القيود والنكد. وبالرغم من أنها ترملت وهي في الثانية والأربعين من عمرها فقد وقفت أمي حائلا أمام أي محاولات لزواجها مرة ثانية: "عندك بنات يا رجاء. هاتدخلّي عليهم راجل غريب مانعرفش هايبصلهم ازاي لما يكبروا؟" وانصاعت.

تأتي لأمي كل يوم قبل ذهابها للمزرعة لتسألها عن طلباتها، وتمر عليها بعد انتهاء عملها وهي محملة بما طلبته أمي وما لم تطلبه.

جاءت رجاء في إحدى الأمسيات، حاملة معها طلبات أمي، والغيارات الداخلية والجوارب السميكة التي طلبتها. كانت تحمل معها أغراضًا خاصة لها، ومن بينها "كيلوت فتلة"، غضبت أمي وعلا صوتها وقالت لها كيف تفكر في شرائه الآن وهي أرملة. خفضتا صوتهما ولم أستمع لسائر الحوار وإن أعقبه اختفاؤها لمدة أسبوعين أتت بعدهما مبتسمة. قبلت رأس أمي، وجلست بجانبها وهي تعد الطعام.

تذكرت كل هذه الأحداث وكأنها وقعت منذ دهر بعيد، ثم صوت أخي بالأمس، لم أستوعب تمامًا صوته المنفعل في التليفون: حادثة، ميكروباص، مستشفى الهرم، مستشفى ابن سينا في الدقي، والعبارة الأخيرة: نزيف في المخ، رجاء في العناية المركزة.

أغلقت الباب خلف الحاج محمود، واقتربت من أمي الساهمة. لم تبكِ حتى الآن، ولم أبك أنا أيضًا، ولا أعرف إن كنت سأبكي لاحقًا. كانت أمي تجلس إلى ترابيزة السفرة المستطيلة والكرسي الخالي الذي اعتادت رجاء الجلوس عليه، اقتربت منها، أزحت الكرسي إلى جوارها وجلست. فردت أمي كفها على المفرش البلاستيك السميك وأخذت شيئًا وهميًّا من إناء غير موجود، أدارت رأسها في اتجاهي ولكن لم يبد عليها أنها تراني، قالت وهي تحرك كفيها:

ـ "بصي يا رجاء. هي حزمة شبت وحزمة بقدونس وكزبرة، وتقولي وانتي بتلفي: ياحبأ يا نبأ هات الحشو على قد الورق"

حبيب العمر

صلاح، ابن نينة أم أحمد، يعاني من بله وعته مغولي ومتلازمة "داون"، ويعشق فريد الأطرش.

كان أبي أول من اشترى جهاز التليفزيون في المنطقة كلها بعد شهور قليلة من دخوله لمصر، فأصبح بيتنا الهادئ الذي كان بابه مغلقًا دائمًا مشاعًا للجيران وأقارب الجيران. كان التليفزيون ماركة "نصر" مقاس واحد وعشرين بوصة، محاطًا بإطار من خشب الزان الجميل لونه بني غامق، مما يضفي عليه هيبة ووقارًا. وضعته أمي على ترابيزة السفرة في الركن المجاور لشباك الصالة، وفردت عليه مفرشًا مخمليًا جميلاً لونه أزرق، ثم زيّنت سطحه العلوي

بفازة صيني طويلة بيضاء، رفيعة من الوسط ومفلطحة من الجزء السفلي، تشبه جسد أمي تمامًا، بها وردتان حمراوان من البلاستيك، ثم واصلت الزن على أذنيْ أبي إلى أن أحضر عم أحمد النجار. أخذ المقاسات والأبعاد وحدد الارتفاع عن الأرض بناء على تعليماتها، وصنع ترابيزة جميلة من خشب الزان أيضا المدهون "استر" تليق بالجهاز الأعجوبة.

بعد صلاة المغرب يدب النشاط في أمي وتتبدل حالها، تنسى مرض والدي وكلام الأطباء، تدخل إلى المطبخ، وتبدأ في قلي لب البطيخ الذي غسلته وجففته في اليوم السابق، وقبل أن يتحمص اللب تسكب عليه ماءً أذابت فيه الملح والشطة، ينشف اللب ويبدأ في الطقطقة والفرقعة والقفز من الطاسة، تفوح في المنور رائحة اللب، وتُسمع أصوات الطقطقة فيعرف الجيران أن الوقت قد حان للسهر والسمر والقزقزة.

صلاح، أول القادمين. يأتي، وبلاط الصالة اللامع لايزال يحتفظ برائحة الفنيك، ورائحة الغسيل على المنشر المطل على الجامع القديم تؤكد أنه لم يجف بعد، يطلب من أمي فتح جهاز التليفزيون، فتعطيه "كبشة" من لب البطيخ الأسمر، وتطلب منه الانتظار حتى يكتمل الجمع، توفيرًا لجزء من فاتورة الكهرباء التي علت قيمتها فجأة وكانت مثار نقاش حاد بين أمي وأبي. يجلس صلاح على

الكنبة المستطيلة ويبدأ في الغناء "أبيب العُم" أغنية فريد الأطرش "حبيب العمر"، كما ينطقها، فتضحك أمي ويجلجل صوتها في الصالة. يبدأ صلاح في القفز والجري والدَّب بكعب قدميه إلى أن تصيح أبلة سونة جارتنا "السقف هايتهد علينا. حرام عليكو"

تدخل نينة أم أحمد وعمي مرسي الذي تزوجته بعد وفاة زوجها. عارضها الجميع بدءًا بأولادها المتزوجين ومرورًا بأقاربها، حتى الجيران تدخلوا في الأمر محاولين إقناعها بالعدول عن قرارها. قاومت الجميع وأصرت على موقفها: "الوحدة وحشة"، و"صلاح كبر وماعدتش قادرة أحمّيه لوحدي"

جرى صلاح، وانزوى في ركن بعيد، ما إن وقع بصره على عمو مرسي، توقفت ضحكة أمي وسط أذني وأنا أرى الرعب يكسو ملامح صلاح. اقتربت نينة أم أحمد حيث تقف أمي وقالت بصوت منخفض: "بيضربه يا سامية، بيضربه جامد ومش قادرة أحوش عنه. قال لي هايسيب لنا البيت ويمشي وأنا ما صدقت لقيت ونس بعد المرحوم"

تسللتُ إلى البلكونة حيث منشر الغسيل الذي لم يجف بعد. من هناك لمحت "صلاح" يدفن رأسه في جلباب أمي وبدأ ينتحب بصوت عالٍ مرددًا "أبيب العُم. أبيب العُم." بنغمة جنائزية موجعة.

دنيا وآخرة

وضعتُ المفاتيح في السيارة وأدرتُ المحرك، شغَّلت الكاسيت على أعلى درجة للصوت وتركت محمد منير يحجب عني نشازًا ممتدًّا داخلي: "الليلة يا سمرا"

غادرت المستشفى بعد أن قابلت الطبيب المعالج لأمي، شرح لي ولأخي الحالة بهدوء، ثم قال إذا كُنَّا نريد نقلها للمنزل في الساعات الأخيرة المتبقية لها فلا بأس، وسيتدبر هو الأمر مع إدارة المستشفى.

تركني أخي وتوجه للبنك لسحب تكاليف الجنازة والدفن، وقبل أن يغادر طلب مني البحث عن رقم تليفون مسعود "التربي"، والاتصال به لتجهيز المدفن.

عدت للبيت مسرعة. "روبوت آلي" لا يفكر أو يحاول أن يفهم، فقط ينفذ الأوامر الصادرة له. بحثت عن رقم مسعود التربي في كل مكان، في الهاتف القديم الذي غيرته بعد أن انتهت صلاحية بطاريته، ولم تُجد معه أي بطاريات جديدة أخرى، منظم المواعيد الإلكتروني، الأجندة الورقية التي كنت أدون فيها الأرقام قبل أن أمتلك الهاتف المحمول ـ أو يمتلكني ـ، باءت كل محاولات البحث بالفشل. لا مفر من الذهاب بنفسي إلى منطقة البساتين بحثًا عن "مسعود التربي"

لم أذهب إلى القرافة منذ سنوات طويلة جدًّا. بناها والدي عندما مرضت جدتي مرضًا شديدًا حرمني من الاستماع إلى حكاياتها الجميلة: "قمر الزمان"، و"الأميرة أم الضفاير"، و"المغارة المسحورة". كان والدي يصحبني معه عندما يذهب للإشراف على بنائها، كنت أسمعه يقول لعم يونس التربي، والد مسعود: "شد حيلك يا بو يونس؛ الحاجة تعبانة قوي"، بعد اكتمال البناء بعدة شهور شفيت جدتي وجاءت من البلد للإقامة المؤقتة معنا في بيتنا الكبير، وودعنا والدي لإقامة دائمة في القرافة التي بناها لجدتي في البساتين.

لم أتعب كثيرًا في العثور على مسعود. الكل يعرف مسعود:

"الحوش الصغير أول يمين بعد محطة البنزين في مدخل البساتين" توجهت حيث دلني عمال محطة البنزين، ناديت على مسعود فجاء مسرعًا، عرَّفته بنفسي، فأظهر تأثرا مفتعلاً، وقال:

ـ "الله يرحم والدك، بنى القرافة للحاجة وكان أول واحد يدِّفن فيها"

ركب مسعود بجواري، مرت جنازة أمامنا، فخفضت صوت الكاسيت خجلاً. أخذ يشير لي يمينًا ويسارًا في شوارع ضيقة غير مرصوفة حتى قادني إلى القرافة التي نسيت مكانها على وجه التحديد. ركنت السيارة بجوار جدار كان على ما أذكر شاهقًا جدًّا فبدا قصيرًا ومتشققًا، ووقفت أمامها أتأمل المكان الماثل أمامي، ومكانا آخر مطبوعا في الذاكرة.

يقف حوش القرافة وحيدًا بالقرب من جامع الكحلاوي. غرفتان مسقوفتان، واحدة للرجال وأخرى للسيدات، حوش فسيح بلا سقف به مصطبة عالية، كنت أحب الجلوس عليها، عندما ينشغل عنِّي الرجال بصمتهم والنساء بثرثرتهن إلى أن نهرتني أمى لأن "تحتها يرقد أبي ولا يجب إزعاجه" إلى اليمين حمام بلدي صغير فقد بابه الخشبي، تربعت على جانبه نبتة صبار دائمة الاخضرار مهما غبنا

عنها، ومهما غابت عنها المياه. كنت أسلي نفسي برشها بخرطوم المياه البرتقالي اللون المليء بالثقوب، أحركه يمينًا ويسارًا مع هزات رأس المقرئ، فتسعد الصبارة، أو هكذا كان يخيَّل لي.

تغيرت القرافة، أصبحت أصغر بكثير عن الصورة التي أحملها في ذاكرتي. كانت حيطانها من الطوب الأحمر المصقول فأصبحت بلا لون، اختفى كذلك النمل الفارسي الأسود الكبير الذي كان يطاردني وأطارده، غرفة الرجال خالية، وغرفة السيدات معتمة على الرغم من غياب الملابس السوداء التي كنت أظنها السبب في ظلامها. وحدها نبتة الصبار ظلت دون تغيير.

أخذ مسعود يتحدث ولا أسمعه. تركته واقفًا في الحوش الفسيح يرفع بعض الأتربة، يسوي كومة رمل عالية، ويروي الصبارة الخضراء وسرحت في والدي. حاولت تذكر ملامحه.

بعد الوفاة بعدة شهور رفعت أمي من حجرة الصالون صورة أبي الكبيرة التى رسمها بالفحم من صورة صغيرة: "محمود فوزي، خطاط ورسام"، كما كانت تطالعني اليافطة الكبيرة التي وضعها أمام محله المتواضع بالقرب من مسجد "أحمد بن طولون" عندما ذهبنا لاستلام الصورة، ووضعت مكانها صورة أخي الكبير. وعندما سألتها عن السبب ردت باقتضاب:

ـ "الدوبارة دابت"

أمي كانت كثيرة الحركة قليلة البكاء أثناء الجنازة، وأيضًا أيام "طلعات" القرافة التي تكررت كثيرًا بعد الوفاة، ثم قلَّت تباعًا حتى توقفت تمامًا. كانت أقل النساء بكاءً على والدي، الأمر الذي كان يحيرني كثيرًا. كنت أرى أخواتي اللائي يكبرنني سنًّا وجدتي وعماتي وأقارب أمي وأقارب أبي وهم يبكون أبي أكثر منها، ولم أدرِ السبب. كانت فقط تؤكد علينا ألا ندفنها بجوار والدي عندما يحين أجلها.

عندما كبرت أردت دومًا أن أسألها عن السبب ولم أجرؤ. لن أعرف السبب أبدًا.

"المدفن جاهز" أفقت على صوت مسعود

مسكينة أمي؛ لن نستطيع تنفيذ وصيتها.

صُرَّة المكوى

"نَكْوَى يا نَجْدِي" "نَكْوَى يا عَنّ عبده" "نَكْوَى ياأستاذ نختار"

يأتي عوض "المكوجي" إلى العمارة كل يوم بعد صلاة العصر، ويبدأ في المناداة بأعلى صوته على كل سكان العمارة بصوته الأخنف الحاد. يعنفه الرجال ويلكزونه أحيانًا بقسوة على نطقه لكلمة "مكوى" وصياحه، بينما تضحك النساء بلا صوت في حضور الرجال ويقهقهن بصخب فاضح في غيابهم.

عوض طويل جدًّا، نحيف جدًّا وعبيط. عنده لثغة في معظم الحروف الأبجدية. وعلاوة على ذلك، يهتز ويرتعش في مشيته، فيبدو كما لو كان نخلة على وشك السقوط.

تأتي أمي بفساتين أخواتي البنات وقمصان أخى الأكبر وبنطلوناته، وتسلمها له بالعدد. أما فساتيني وملابس أخي الصغير فتبقى في البيت، وتتولى أمي أو الخادمة كيها ولا تعطيها لعوض. تضع الملابس في صُرَّة كبيرة كانت نصف ملاءة سرير قبل أن تبلى من الوسط فقصتها أمي بالمقص إلى نصفين وجعلتها "صُرَّة المكوى"

أتى عوض بعد صلاة العشاء، حاملاً القمصان مطوية ومرصوصة فوق كرتونة نتيجة بلا أيام العام، والفساتين مُعلّقة على شماعات خشبية بنية اللون، ثم أعطى لها قطعة الملاءة التي صرّت فيها الملابس بكرمشتها كما هي. نظرت له بغضب شديد، خطفتها من يده، ورمتها في وجهه، وقالت زاعقة: "الصُرَّة تتكوي قبل الهدوم يا عوض". احمرت عينا عوض وبدأتا تدمعان، مسحهما بكم جلبابه وقال لها: "طيب هاخد أجرة قنيص". رفضت أمي وهددته إن لم يقم بكي الصُرَّة فلن يأخذ بعد ذلك قميصًا واحدًا من عندنا. خفض عوض رأسه ونزل السلم مرتعشًا مهتزًّا، كما صعده، وهو يحمل الشماعات الخالية، وكرتونة النتيجة التي يضع عليها القمصان، وصُرَّة المكوى المكرمشة. غاب قليلاً ثم عاد بالقماشة مكوية ومطوية مثل القميص كي يأخذ ثمن كي الملابس.

سافر عوض إلى بلده، وغاب أسبوعًا عاد بعده ومعه فتحية. فتاة ريفية كحيلة العينين بيضاء البشرة، طويلة مثله ونحيفة مثله ولكنها لا تهتز في مشيتها ولا تلثغ في الحروف. بدأت أمي والجارات يستعنَّ بفتحية للقيام بأعمال التنظيف أو شراء الأغراض من الخارج. كانت فتحية تغني أغاني جميلة، لا أفهم معظم كلماتها، وهي تمسح البلاط أو تغسل الصحون في المطبخ، ثم توقفت عن الغناء وأصبحت صامتة شاردة معظم الوقت. وبعد شهر من حضورها من البلد جاءت في المساء بينما كانت أمي جالسة مع بعض الجارات، يشاهدن التليفزيون، ويشربن القهوة المحوجة قبل أن تبدأ أم فاطمة زوجة البواب في قراءة الفنجان لهن. اندفعت "فتحية" إلى منتصف الصالة وهي حاسرة رأسها وبلا طرحتها المشجرة. انسدل شعرها بنيًّا غزيرًا ناعمًا حتى منتصف ظهرها، كانت تبكي بصوت أقرب للصراخ. جرت أمي ووضعت كفها على فم فتحية، حتى لا تتمادى في الصراخ. جلست فتحية على أرضية الصالة وبدأت في لطم خديها. اقتربت أم فاطمة زوجة البواب منها وأخذتها في صدرها: "مالك يا فتحية؟ الواد عوض ضربك؟" غمغمت فتحية ببعض الكلمات لم أتبين منها سوى "ما بيعرفش المِدَهْوِل، ولا حتى بلدي" ضمتها أم فاطمة بقوة، رفعت فتحية رأسها، نظرت في عيون أمي والجارات، ثم شدت جلبابها بقوة من فتحة الصدر فانشقت كاشفة عن ثديين مكتنزين وقالت: "وكتاب

الله لو ما طلقتونيش منه لكون رامية نفسي من البلكونة" قالت هذه العبارة وهبَّت واقفة ثم جرت على بلكونة حجرتي. انطلقت أم فاطمة وراءها وشدتها بقوة وعادت بها إلى الصالة مرة أخرى، أحضرت كوب ماء لها، شربت فتحية ونظرت بتوسل لأمي، جثت على ركبتيها وحاولت تقبيل قدم أمي. اهتز صوتها وقالت: "طلقوني ينوبكم معروف. وكتاب الله لو ما طلقنيش لكون ماشية على حل شعري"

اقتربت أمي منها رفعت كفها وهوت به بقوة على خد فتحية.

ـ "يا فاجرة! ابقي اعمليها كده وأنا اجيب له السكينة بنفسي واخليه يدبحك قدام عنينا."

رفعت فتحية رأسها، أزاحت خصلات شعرها الكستنائي الناعم فظهرت أصابع أمي الأربعة على خدها من أثر الصفعة. نظرت في النسوة المتحلقات حولها، وقالت: "مش هايعرف يدبحني الدُّهُل؛ ده كله بيترعش" لكزت "أم فاطمة" "فتحية" في كتفها وانفجرت النسوة في قهقهة عالية.

حج مبرور

كنت كثيرًا أسمعها تخاطبه، مرةً متوسلةً راجية، وأخرى معاتبةً لائمة، ولكن بصوت خفيض وكلمات تخرج بطيئةً حانيةً في المرتين.

ـ "سايقة عليك النبي أروح أحج! أحج واسقط الفريضة، العمر قصير يا حاج."

يجلس "عمي عبد العزيز" في دعةٍ وسكينة، فإذا كان صوتها

راجيًا يبتسم ابتسامةً عريضةً، فيظهر شاربه الرفيع كخطٍّ أفقي طويل يمتد من الأذن اليمنى حتى الأذن اليسرى تحت عينيه اللتين لا تبينان من خلف إطار نظارته الأسود. أما إذا جاء صوتها لائمًا فإنه يقطب جبينه، فيعود الخط الرفيع إلى سابق طوله الحقيقي، وفي الحالتين لم يكن يعلق.

على مقعده الأثير ذي المسندين يتمدد "عمي عبد العزيز" واضعًا ساقيه على "شلتة" قطن سميكة، حشاها المنجد من بقايا القطن بعد انتهائه من التنجيد لحفظ القطن المتبقي حتى يحين وقت الحاجة إليه لزيادة لحاف أو مخدة هبطا من كثرة الاستعمال. يقرأ دائما جريدة الأهرام، ويبدأ بصفحة الوفيات، يقضي وقتًا طويلاً وكأنه يحفظ ما بها. كان يهديني وجميع أطفال العمارة الأقلام الرصاص الصفراء ماركة "المهندس" ذات الخطوط الطولية السوداء، يذهب إلى محل "عم شُرُش" البقال ويشتري الأقلام بالدستة، يُجلسنا أمامه ويبدأ في شحذ السن بأمواس "ناسيت" أستطيع من على البعد أن أميز هذه الماركة من صورة التمساح الصغير على الورقة، فتبدو سنون الأقلام الرصاص حادة وسط أهلّة تفنن في ضبطها بالموسى.

استحضرتْ ذاكرتي ذاك المشهد كاملاً وأنا أنصت لصوت وفاء صديقتي، الحفيدة الصغرى لعمي عبد العزيز ونينة أم ألفت عبر الهاتف، كانت تسألني عن عنوان طبيب الريجيم الذي تظن أنه

كان السبب في إنقاص وزني، فهي لم تقتنع أبدًا أنها إذا أرادت إنقاص وزنها فعليها أن تغلق فمها، وتمتنع عن المحشي والكشري والباشاميل. بعد السلام والكلام سألتها عن نينة أم ألفت، فأجابت بصوت أشبه بصوت قارئات النشرة الجوية: نينة كبرت وخرفت، وبقت تعملها على روحها.

"نينة أم ألفت" كانت تجلس دومًا أمام محمصة حديدية صغيرة بنية اللون على شكل أسطوانة أو برميل صغير له ذراع تتركه لي أحيانا حتى أقوم بلفه فوق الموقد المشتعل. ومطحنة أصغر من المحمصة لطحن البن بعد تحميصه. كانت تعرف تمامًا متى تتوقف عن لف ذراع المحمصة حتى تحصل على البن الفاتح الذي يفضله زوجها، أو تزيد الوقت قليًا للحصول على البن الغامق الذي تفضله هي.

كانت تجلسني بجانبها، وتتركني أمسك بالذراع الحديدي، وأديره ببطء كما علمتني، مستمتعة برائحة البن الجميلة، ثم أراقبها بينما تقوم بطحن البن بعد تحميصه مع إضافة الحبهان وجوزة الطيب انتظارًا لمكافأتي بعد مجهود غير شاق: رشفة سخية من فنجان القهوة السادة، ثم لحسة من التنوة الداكنة المترسبة في قاع الفنجان.

أغمض عيني بينما ألعق سبابتها الغارقة في القهوة المُرّة رائعة المذاق، بينما تؤكد عليَّ محذرة

ـ "بس اوعي تقولي لسونة! أصل أمك قوية. قال القهوة مُضرّة قال! خيبة"

استرسلت وفاء في الكلام عبر الهاتف. عانت نينة أم ألفت من أمراض الشيخوخة، وأصبح من الصعب على الأحفاد رعايتها، فكان القرار بعد اجتماع مجلس العائلة أن تُودَع إحدى دور المسنين. ونظرًا لتدهور حالتها الصحية، لم يكن من السهل إيجاد دار تقبل بها. ومنذ شهرين قبلتها "اليسوعية"، إحدى الدور التابعة للكنيسة التي تقبل المسلمين أيضًا. في تلك الدار تقاسمت نينة أم ألفت الغرفة مع سيدة مسنة مسيحية حينما تعذر إيجاد غرفة فردية لها.

صمتت وفاء قليلا، ثم حكت أنها بالأمس ذهبت مع زوجها وأولادها لزيارة نينة أم ألفت حاملة لها البسبوسة التي تحبها، وكانت طلبتها في الزيارة السابقة. وقبل أن تمد يدها نحو الحلوى، رفعت نينة أم ألفت رأسها ناحية صورة مريم العذراء المعلقة فوق السرير المجاور، رسمت علامة الصليب على صدرها، ورددت بصوت هامس "باسم الآب والابن والروح القدس". ضحكتْ وفاء، وضحكتُ مجاملة لها.

أُمّنا الغُولة

"فاطمة عمر"، سمينة كما البقرة العشار، سوداء كما فحم الأرجيلة التي تُدخّنها بعد صلاة المغرب في الحوش الواسع المواجه لعمارتنا، سليطة اللسان كما لم أسمع أحدًا من قبل. اسمها فاطمة وأخوها اسمه عمر، ونظرًا لأنهما يمثلان ثنائيًا فريدًا أثناء الشجار والمعارك التي تنشب لسبب أو دون سبب، أطلق عليها الجميع اسم فاطمة عمر، وظل هذا الاسم لصيقًا بها دون أن يعرف أحد اسم والدها الحقيقي.

تكون جالسة تشرب شايًا داكن اللون في كوب زجاجي قصير، ثم يحدث شجار لسبب ما، فتسارع بشد طرحتها السوداء من على شعرها الأحمر بفعل الحناء وتلقيها على الأرض بعصبية وقوة،

وتخلع جلبابها الأسود. تأتي بزجاجة بلاستيكية من زجاجات زيت التموين، وتسكبها على جسدها فيلمع لمعانًا شديدًا.

يظهر ثدياها المتدليان، وكرشها البارز للأمام، وثنايا من اللحم المرتب فوق بعضه طبقات عدة، وعورتها المتوارية بين فخذيها الممتلئتين، وإن كنت ألمح شجيرات كثة بين ثنايا الغابة اللحمية.

تبدأ المعركة فتنتفض وتتمايل مثل شجرة جميز وسط عاصفة، تتحرك أصابعها وذراعاها بحركات عنيفة في كل اتجاه، وتتفنن كل مرة في ابتكار تنويعات جديدة على تلك الحركات، وإن ظل المعنى والمدلول واضحين كل الوضوح.

ظلت فاطمة عمر، بالنسبة لي، "أمنا الغولة" التي تحكي جدتي عنها في الحواديت؛ فهي عندما تأتي على ذكر جني أو عفريت في حكاياتها أتمثل صورة فاطمة عمر فورًا، مع تغيير طفيف في منطقة ما بين الفخذين.

وعندما تبدأ "الوسعاية" المقابلة طقوسها اليومية، تبدأ في منزلنا أيضًا طقوس موازية، تستهلها أمي بإطفاء نور الحجرة المطلة على الشارع، ثم يتبعها إغلاق شيش النافذة بـ"الشنكل" الحديدي كي يترك مساحة للمشاهدة. نقف في صمت من خلفه لمراقبة المشهد. تتركني

أمي أقف بجوارها في البداية، وعندما تبدأ العبارات المبهمة بالنسبة لي، وتتدفق الحركات العنيفة عبر الأصابع والأذرع، ويتحول المشهد إلى عرض عنيف مليء بالحيوية والنشاط، تنهرني كي أغادر وأجلس في الصالة.

لم يحدث أبدًا أن تطوَّر الشجار إلى التحام بالأجساد؛ يقف كل طرف على جانب، ودائمًا ما ينتهي فجأة كما بدأ فجأة دون أن نعلم السبب، وتعود فاطمة عمر إلى جلستها أمام الأرجيلة، تربط طرحتها على رأسها، وترتدي جلبابها الأسود على جسدها اللامع بفعل زيت التموين، ثم تكمل شرب الشاي الذي تركته قبل العركة.

انتهيت من الدرس عند زميلتي بعد السادسة مساء، في ذلك اليوم من أيام الشتاء التي يقصر فيها النهار ويحتل فيها الليل وقتًا أطول بكثير مستهزئًا بكل قواعد العدل والمساواة. كانت المنطقة هادئة مظلمة قابضة، أغلق عوض المكوجي المحل، وأنزل عم "شُرُش" البقال بابه الحديدي على بضاعته القليلة، ولم يكن هناك من ضوء ولو بسيط ينير المكان. سِرْتُ مسرعة حتى أجتاز هذه المسافة، التي تقصر نهارًا وتطول ليلاً، وأصل إلى مدخل العمارة. شعرت بخطوات تسرع من خلفي، أسرعت أكثر فتسارعت الخطوات، ثم سمعت بضع كلمات نابية لشاب يحاول اللحاق بي ومضايقتي،

دقَّ قلبي بشدة وانتفض جسدي كله، ازداد المكان ظلمة، ثم التوت قدماي ووقعت على الأرض وهو يهم بالإمساك بي من الخلف. عند هذه اللحظة انشقت الأرض ورأيت شبحًا عملاقًا يقف أمامي، "أمنا الغولة" بشحمها ولحمها تقف بكامل ملابسها، جذبت الشاب من عنقه، وللمرة الأولى أراها تشترك في اشتباك حقيقي، بعد عدة لكمات، أفلتته، ففرَّ هاربًا. مدت ذراعيها ترفعني عن الأرض، وسط الظلام السحيق والعرق الذي غمرني. أخذتني في حضنها ونفضت التراب الذي علق بملابسي، وقالت بصوت لا يشبه صوت الغولة الذي تخيلته دائمًا: "ما تخافيش يا ضنايا. هامشي معاكي لحد باب البيت"

في الطريق من مصر إلى الولايات المتحدة، أهدتني أمل رضوان أوراقها وهي تودعني. حملت الأوراق الكثيرة في حقيبتي وأنا أتأمل الوطن الغارق في بؤسه وحزنه، لكنني لم أكن أعرف كمّ البهجة التي أهدتها لي أمل في تلك الاوراق، ولا أعرف كيف تسللت داخلي الحكايات الواحدة بعد الأخرى.

تعلقتُ بكل حكاية وامتلأ قلبي بتلك الغيرة التي أعرفها، والتي طالما عرفتها كلما قرأت نصا جميلا ومتحديا؛ الكتابة التي أعجز عن وصفها، ولكنني أتذكر كيف أثارت غيرتي ككاتبة، كما ستتذكرها أنت، وهي تنساب باكتمال وتضوج متخذة طريقها إلى قلبك، دون أن تدعي الحداثة أو ترتدي الحذلقة اللغوية، فقط تنساب بأناقة واتزان وقدرة علي الإبهاج وتصدمك بصراحتها ووضوحها ولغتها الآسرة، ثم تتركك مخلفة وراءها أسئلة وجروحا وذكريات يصعب محوها من ذاكرتك.

تلك المجموعة التي بين يديك، هي بعض من موهبتها، وفيض قليل من خزانتها المليئة بالكنوز، التي أعرف أنها قادرة أن تمنحك- كما منحتني- بهجة الكتابة الكبيرة الأصيلة، القادرة علي صنع البهجة وسط الضجيج.

ميرال الطحاوي

9 789774 902895